

محمد عبد الغنى حسن

اقرأ

تيجان تهاوت

دار المعارف



0203853

Bibliotheca Alexandrina

اهداءات ١٩٩٩

١/ محمود محمد علي العيسوي
الإسكندرية

تيجان تهاوت

الإعلانات يتفق بشأنها مع

شركة إعلانات الشرق الأوسط

٣٣ شارع عبد الحالق ثروت تليفون ٧١١٧ القاهرة

محمد عبد الغنى حسن

تيجان تهاوت

اقرأ
١١٧
دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

١١٧ - أكتوبر سنة ١٩٥٢



جميع الحقوق محفوظة
لدار المعارف بـمـبـصـر

استهلال

« قل اللهم مالك الملك ، تؤتي الملك من تشاء ، وتنزع الملك
ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير ،
إنك على كل شيء قدير »

قرآن كريم

عرش على صنم

لم يكن البطل الفاتح «محمد بن القاسم الثقفي» هو أول جنائي مسلم وطئت قدماه أرض السند في العصر الأموي . ففي السنة الثالثة والأربعين من الهجرة عزا المسلمون السند غزوة استطلاع ، ولكنهم لم يعنوا في البلاد ، ولم يستطعوا أن يدخلوا في قلبها لكثرة ما فيها من المخاضات والأوحال ومناقع المياه .

وفي زمن الحجاج بن يوسف الثقفي كان «ابن مسعر التميمي» عاملاً للدولة الأموية على ثغر السند ، إلا أن العرب ظلوا على مرابطتهم في سواحل الهند وبنغورها .

وكان أفراد من العرب وأهل السند يترددون على أماكن في داخل بلاد السند ، ويجوبون أرضها طلباً للتجارة أو سعياً وراء الرزق ، وكانوا يحدثون الناس عند عودتهم بطرائف من هذه البلاد، وغرائب من أحوالها وعجائب أمورها . . . فكانت تغتلى في نفوس القوم رغبة ملححة في فتح هذه البلاد وضربها إلى

الواء الإسلامي ، كما انضوت تحته ألوية الفرس والروم وغيرهما من البلدان والممالك الضخام .

وكان في الشباب العربي المسلم الناهض شاب يجتمع مع الحجاج بن يوسف الثقفي في النسب . فهو ابن عمه ، ويلتقي معه في « الحكم بن أبي عقيل » .

ولم يكن محمد بن القاسم ابن عم الحجاج — قد خطا إلى العشرين بعد حين قامت في نفسه الرغبة إلى الجهاد والفتح . لقد كان في السابعة عشرة من عمره حين استعمله الحجاج على ثغر السند ، وحين سير معه ستة آلاف مقاتل من خيرة الشباب العربي الذين تمتلئ نفوسهم حماسة وتدفقا وتشوقاً إلى خوض الغمرات ، وعدم المبالاة بالأهوال

وجهاز الفائد الشاب بكل ما يحتاج إليه جيش يضرب في سبيل الله ، ولم يفت إدارة التموين في ذلك الجيش أن تمده بكل ما يخطر على البال وما لا يخطر من وسائل الإمداد والإعداد . . . حتى الحيوط والإبر والمسالك التي قد يحتاج إليها الجنود في رتق ثيابهم حتى لا تتسع خروقهم على الواقع . . . وكان الحجاج على معرفة تامة بأحوال هذه البلاد النائية ؛

وهى معرفة لم يخلقها العيان والمشاهدة، ولكن أكدتها الأخبار الوثيقة التى كان الحجاج يلتقطها من أفواه السياح والرحالة والتجار والمستطلعين .

وقد بلغ من عناية الحجاج بتموين الجيش الذهاب إلى بلاد السند أنه سمع أن الحل فى هذه البلاد شحيح غاية الشحة، وأن جنوده قد لا يستغنون عنه فى الطبخ والاصطباج به . . . فعمد إلى القطن المخلوج فنقع فى الحل الحمر الحادق ، ثم جفف فى الظل . . . ثم قال : إذا صرتم إلى «السند» فانقعوا هذا القطن فى الماء ثم اطبخوا به واصطبغوا . . .

وقد أعنت هذه الحيلة الطريفة هذا الجيش عن أن يحمل معه الحل فى زجاجات وأوعية قد تعطب على الطريق ، فوق أنها عبء ثقيل على ظهور الخيل والدواب ، التى يجب أن يخفف عليها وهى ذاهبة إلى ميدان القتال .

وسار محمد بن القاسم إلى «مكران» فأقام فيها أياما ، وما زال ينتقل من بلد إلى بلد ، وتسلمه أرض إلى أرض ، حتى أتى مدينة «الديبل» وكانت أهم بلد بالسند .

واستقرت النوى بالقائد الشاب فى مدينة «الديبل» . ووافته

السفن الحربية التي كانت محملة بالرجال والسلاح والأداة ،
فكانت الغارة على المدينة السندية المقدسة برية بحرية .

وأخذ الجنود يتخفون من وعناء الرحلة ، ولكنهم سرعان
ما حضروا الخنادق وركزوا الرماح عليها ، ونشروا الأعلام ،
وأنزل الناس على راياتهم في منازلهم المخصصة لهم .

وكان القائد الشاب قد حمل معه فيما حمل من عدة القتال
منجنيقاً عظيماً يقال له « العروس » . وبلغ من ضخامة
« العروس » وعظم حجمها أنها كانت تحتاج إلى خمسمائة رجل
لإدارتها وإمدادها . وكانت ترمى بالحجارة الضخمة على مسافة
بعيدة فتدك أقوى الحصون . . .

وكثيراً ما سمع القائد وجنده عن « البد » الهائل الذي كان
في مدينة « الديبل » بالسند . . . وهو الآن مع جيشه أمام ذلك
الصنم الضخم وجهاً لوجه . . . لقد كان « البد » صنماً عظيماً في
بناء عظيم . . . وكان تحت منارة عظيمة مرتفعة ، وفي رأس
المنارة دقل عظيم . . . وكان ذلك الدقل أو—السارية—يحمل راية
حمراء إذا هبت الريح أطافت بالمدينة في دورة واسعة فرآها
القريب والبعيد .

وحاصر المسلمون المدينة السندية المقدسة ، وطال حصارها
والعرب في وفرة من الزاد والمثونة ، وأهل المدينة على شفا نفاذ
أقواتهم وأزوادهم .

ورمى الفاتحون العرب سارية « البد » العظیم بحجر ضخيم من
أحجار « العروس » فكسرت سارية الصنم ، وتمزق اللواء ، وبعثت
الراية الحمراء . . . فتطير أهل السند بألك ووقع في نفوسهم
رعب شديد ، ودار بين الفريقين قتال أبلى فيه العرب بلاء
حسناً ، وقتلوا مقتلة عظيمة ، واستمرت المعركة حامية الوطيس
ثلاثة أيام بلياليها ، لم يطعم الفاتحون فيها سنة من النوم إلا غراراً . . .
واحتل محمد بن القاسم المدينة وأنزلها أربعة آلاف من جيشه
البرى .

وسرت في « السند » أنباء هذه القوة الزاحفة التي لا يقف
في سبيلها سد ولا حصن ، ولا يصدها هول ولا خوف . . .
وإنما هي ماضية إلى غايتها كما يمضي السهم إلى هدفه ،
فكانت كل مدينة تؤثر الطاعة والتسليم في سلام وعافية ،
وكان ابن القاسم لا يمر بمدينة إلا فتحها وصالحه أهلها عليها .
وكان « ذا هر » ملك السند يجمع جموعه وينظم صفوفه

لكى يلتقى المسلمين لقاء يحسب فيه السلامة له ولقومه . وكانت الموقعة قريباً من نهر «مهران» . وكان ملك السند على فيل عظيم كعادة أهل تلك البلاد فى قتالهم ، وحوله التكاكرة — وهم قواد السند — واشتد القتال بين الفريقين إلى حد لم يسمع بمثله . ودب اليأس فى قلوب أهل السند ، على حين صابر العرب مصابرة أذهلت أعداءهم . ولم يحن المساء إلا وقد انهزم جيش « زاهر » ، وسقط زاهر نفسه من فوق الفيل ، وظل يقاتل حتى قتل

واستمر ابن القاسم معنأً فى الفتوح حتى دانت له «السند» كلها بلداً إثر بلد ، وما زال كذلك حتى بلغ مدينة «الملتان» ، وكان صنمها معظماً عندهم ، تهوى الأفئدة إليه من كل فج ، وتهبى إليه الأموال ، وتحلق عنده الرؤوس والاعشى وتقدم له الضحايا . فحاصر المدينة ، وقطع الماء عنها كعادته فى كل حصار ، وقاتل سدنة الصنم العظيم وكان عددهم ستة آلاف وأصاب المسلمون فى هذه المدينة المقدسة ذهباً عظيماً ، قيل إنه ملاً بيتاً طوله عشرة أذرع وعرضه ثمانية . وكانت هدايا القائد الشاب تنوالى على كبار الأمويين

فى الشام والعراق . . . وأراد أن يطرف ابن عمه «الحجاج» بهدية
غربية، فقدم له فيلا من السند قيل إنه الفيل الذى كان يحارب
عليه «ذاهر» ملك البلاد . وأجيز الفيل البطائح فى سفينة ،
وأخرج فى مشرعة الماء التى كانت تدعى «مشرعة الفيل» نسبة إليه .
وقد لفتت جواميس السند نظر الفاتح الشاب فبعث
بألوف منها إلى «الحجاج»، وهذا بعث منها إلى الوليد بن عبد الملك
بأربعة آلاف .

وسقطت أصنام السند صنما إثر صنم ، وكان مقتل «ذاهر»
ملك البلاد نهاية عرش الأصنام فى تلك الأصقاع . . .

الأموى الطريد

لم يشتف الناس وحدهم من الخليفة المصروع ، ولم تكنف
الأقذار الساخرة بأن يقطع رأس الخليفة وهو يناجز أعداءه فى
قلة من أصحابه الماريين معه . . . ولكن هرة - لعلها كانت
جائعة - نظرت إلى الرأس المجزوز والدم يقطر منه ، فانقضت
عليه فى وسط الجماعة التى نفذت القتل ، واقتلعت لسان الخليفة
المصروع من رأسه المحيى وأخذت تلوكه وتمضغه وتلمظ !
وتخرج لسانها وتمسح به شفتيها . . . فلما تبلغت من الزاد الهنىء
بلسان خليفة كانت الدنيا تأتمر بأمره ، أخذت طريقها خارج
الجمع المحتشد ، ومضت إلى سبيل لها غير معلوم . . .

ليست هذه القصة وحياً من الخيال أو ضرباً من الأوهام ،
ولكنها قصة الخليفة المقتول « مروان بن محمد » آخر خلفاء بنى
أمية . ولقد حاول هذا الخليفة المغلوب على أمره من رجال الدولة
العباسية الناشئة أن يحتال على الأقدار فينجو بنفسه بعد أن
فقد عرشه ، وخسر دولته ، التى كانت أول دولة عربية فى الإسلام .

ولكن هل ينفع الحذر من القدر؟ لقد ظلت رجلاه تمنعان
 في السير وتجدان في الهرب ، وتنتقلان من أرض إلى أرض . . .
 ولم يدر المسكين أن الأقدار كانت وراءه تطلبه ، وأن الدهر
 كان وراءه يرصده . . . والدهر لا مالجأ منه ولا هرب . . .
 كان مروان بن محمد آخر خليفة أراوته الأقدار للدولة
 التي أنشأها معاوية الداهية . . . وكان كل نبىء في عهده
 ينذر بأن الأمور تسير في ظلمات ليل بهم . . . وكانت الأحوال
 حوله تهدد بأن التاج على منفرقه يكاد أن يتحطم . وكانت حركات
 دعاة العباسيين وطلائعهم تؤذن بأن العرش الأيوى تزلزل قوائمه .
 لكى ينتهى هذا العرش المززع إلى بيت جديد . . .

ولقد لقي مروان فى أول عهده بالخلافة الأهوية عمتا كثيرا
 فى محاربة الخارجين عليه ، المتمردين على خلافته . وكان
 كما يقول السيوطى -- يعزل السير بالسير ، ويعسبر على مكاره
 الحرب ، وبلغ من صبره أنهم لقبوه بالحمار . لأنه يضرب به
 المثل فى الصبر . . .

ولم يرق مروان إلى عرش الخلافة غفلا من التجارب التى
 تصهر الملوك . . . ولكن ماذا تنفع التجارب حين تسوء البطانة .

وتفسد الحاشية ، ويكثر الطمع ، ويتسلط الحقد ، وتغلب شهوة الانتقام ؟

والحق أن الحقد الدنيء بلغ في الخليفة مروان الحمار أدنى مراتبه ، فحين صار إليه الأمر والنهى فى الخلافة نبش قبر « يزيد الناقص » - وهو الخليفة الأسبق - وأخرج جثة المسكين وصلبه وهو عظام نخرة . . . لأنه كان قد قتل عمه الوليد .

ولعل شهوة الانتقام فى قلب رجل لم تبلغ ما بلغت فى قلب هذا الخليفة ، ومن ذلك الحين لم يهنا ذلك المسكين بالخلافة لحظة واحدة . . . فخرجت عليه الدنيا من كل جانب . . . واختلفت كلمة الناس فى فتنة جاحمة ، فكل يرى رأياً ويذهب مذهباً .

فهذا عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب من ولد الإمام على ، يخرج على الخليفة وينادى لنفسه ، فيبايعه قوم ويجتمع حوله خلائق .

وهذا أبو مسلم الخراسانى يظهر الدعوة لبني العباس بعد أن كانت تدار فى الخفاء ، فيلتف الناس حوله ، ويجتمع إليه كل من له رأى من أهل خراسان . . .

ولقد شهد « نصر بن سيار » أمير خراسان وميض النار
بعينه خلال الرماد . . . فارتاع أى ارتياح ، وكتب إلى الخليفة
مروان يقول :

أرى خلل الرماد وميض نار ويوشك أن يكون لها ضرام
فإن لم يطفئها عقلاء قوم يكون وقودها جثث وهام
فإن النار بالعودين نذكى وإن الحرب أولها كلام . . .
فقلت من التعجب : ليت شعري أأيقاظ أمية أم نيام ؟

~ ~ ~

واتخذ مروان خطة - حسبها حاسمة - للقضاء على الفتنة
الناجمة المندرة بانهيار عرشه ، فقبض على « إبراهيم الإمام » الذى
يدعو العباسيون له ، وحبسه فى مدينة « حران » ، ثم دس له
السم وهو محبوس فمات .

ولكن الأمور لم تستقم لعرش تنذر قواعده بالزوال ، فقد
التف الناس حول السفاح والمنصور - أخوى الإمام - واجتمع
إليهما خلق كثير ، وقويت شوكة الدعاة إلى الدولة الجديدة .

وكان أبو مسلم الخراسانى سريعا فى خطته لإزالة الحكم
الأموى ، فدخل بجنوده الخراسانية على السفاح والمنصور ،

وسلم على الأول بالخلافة . . . فخرج السفاح ومعه إخوته وعمومته وأقاربه وكبار الشيعة إلى المسجد الجامع ، وأبو مسلم — قائد الانقلاب — بين يديه ، فصعد السفاح المنبر ، وخطب الناس وبويع بالخلافة . . .

وما كان السفاح وحده هو خطيب ذلك اليوم التاريخي المشهود ، فقد خطب بعده عمه « داود بن علي » خطبة تزين مصادر التاريخ الأدبي بقوة حجتها ، وبلاغة عبارتها وتأثيرها النفسي في نفوس السامعين ، ومثانة استدلالها على أحقية العباسيين بالخلافة ، لأنهم « أهل نبيكم » ، أهل الرأفة والرحمة والعطف عليكم .

ولم يكن بد للدولة الجديدة — بعد البيعة لها — من أن تقاتل الخليفة مروان وتقاتل أنصاره حتى يستقيم الأمر لها . وانتدب لذلك عبد الله بن علي بن عباس عم السفاح . فتوجه لقتال الخليفة الأموي مروان ، وتلاقى الجمعان على « نهر الزاب » ، ومع مروان — كما يقدر المؤرخون — مائة وعشرون ألف مقاتل ، ومع قائد العباسيين أقل من ذلك ، وبعد قتال صنع الله فيه للعباسيين أنواع الصنع خذل « مروان الحمار » أشد الخذلان .

وبلغ من خذلان الخليفة الأموي وانفضاض الدنيا من حوله وتآذنها بالانقلاب عليه ، أنه هان على رجاله وحراسه وشرطته ، حتى لقد بلغ به الهوان أنه إذا أمر طائفة من جنده بشيء قالوا له : قل للطائفة الأخرى ! واشتد به الهوان إلى حد أنه قال لصاحب شرطته : انزل إلى الأرض ، فقال : لا والله ! لا ألتى نفسي إلى التهلكة . فتهده مروان وقال له : لأفعلن بك كذا وكذا . فأجاب صاحب الشرطة : وددت أنك تقدر على ذلك !

ورأى الخليفة أن يشتري حماسة الجنود المخدولين بالذهب ، لعل صفوته تحيي النفوس في هذا الوقت العصيب . . . فألقى ذهباً كثيراً أمام الناس ونادى فيهم : أيها الناس ! قاتلوا ! وهذا المال لكم ! فامتدت الأيدي إلى الذهب تتناول منه شيئاً شيئاً .

واصطلحت الأقدار على خذلان الخليفة أكثر مما اصططلحت عليه عوامل الضعف في جيشه . . . فقد قال له بعض الناس إن المقاتلين يأخذون الذهب ، ولا نأمن أن يمحضوا به إلى نهاية الصفوف وينصرفوا عن القتال . فأمر ابنه — وهو يحمل الراية —

أن يرجع إلى آخر الصفوف ليعرف الذين أقعدهم الذهب عن القتال فيقتلهم . . . ولكن العسكر حين رأوا ابن الخليفة يرجع ومعه الراية طنوه ينتهقرو ، وشاع الفشل فيهم ، فتنادوا :
الهزيمة ! الهزيمة !

وتفرق جيش مروان فلولاً هدها الخذلان . ومضى مروان مخادولاً يلتمس النجاة ، فلما بلغ « الموصل » قطع أهلها الجسر ومنعوه من العبور وسادوا عليه الطريق .

ورفع أصحاب الخليفة المولى الأدبار أصواتهم قائلين :
يا أهل الموصل ! هذا أميرنا وأميركم وأمير المؤمنين يريد العبور . . .
وسخر أهل الموصل منهم بجوابهم اللطيف . . . : كذبتم !
فإن أمير المؤمنين لا يفر !

وكان في أهل الموصل موحدة على الدولة الأموية التي آذنت شمسها بمغيب ، فاتجهوا إلى ركب الخليفة الهارب وقالوا : الحمد لله الذي أزال سلطانكم ، وذهب بدولتكم . . .
الحمد لله الذي أتانا بأهل بيت نبينا .

ولم تكن تسيحة الحمد لله هذه غير النفثة التي يريح بها المصادور نفسه من أحمال عبء ثقل ، وكانت المتنفس الوحيد

لقوم شهدوا فساد الأمويين وهو يهد كيان المسلمين هداً . فقد ودعوا دهاء معاوية ، وخيرة سليمان بن عبد الملك ، وتقوى عمر بن عبد العزيز ، ليستقبلوا فسق الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وخلاعة أبيه يزيد بن عبد الملك من قبله .

وكره الناس هذا العبث الرخيص الذى ظهر فى أواخر الأمويين . والذى كانت تنذر بوادره بأمر خطير ، فقد أخذ حبل الدولة يضطرب منذ عهد يزيد بن الوليد . وفى عهد أخيه إبراهيم بن الوليد لم تكن الخلافة شيئاً ذا خطر ولا طائل . فقد سلم عليه ناس بالخلافة ، وأنكرها عليه آخرون . . . إلى أن جاء صاحبنا مروان فكان من أمره ومن زوال ملكه وانتهيار عرشه ما نحن ذاكروه

٢١

وهام الخليفة الأموى الطريد شريداً على وجهه ، لا يحمل من قصر الخلافة إلا ما يتبلغ به على الإمعان فى الحرب ، ولم يكن التاج يأتلق على مفرقه ، ولكنه مخبوء فى أحماله التى هرب بها ، لعله يضعه على جبينه مرة ثانية .
فعبّر نهر دجلة ، وجاء «حران» ، وأسلمته «حران» إلى مدينة

٢١

دمشق ، وهى عاصمة الأمويين ومقر سلطانهم ، فأُنكرته العاصمة ولقظته منها ، فولى وجهه شطر « مصر » لعله يجد فيها أمناً ، أو يلتمس فيها مقاماً ، أو تقام له فيها دعوة . . .

ولم تغفل عين العباسيين وعلى رأسهم الخليفة الأول السفاح عن متابعة الخليفة الأموى الهارب ومطاردته ، وتولى هذا العمل صالح بن على العباسى فجد صالح فى طلب مروان وتعقبه ، وكان الخليفة الهارب كلما حل ببقعة أحرق علف خيله وهو يتركها ، حتى لا يدل عليه العيون .

وما زال التوجس والخوف يخلعان قلب الخليفة المهزوم ، وهو لا يزال يعلل نفسه بالآمال فى بقية من أعوانه وبطانته الذين خاضوا معه كل خوض . . . وكان « أبو عون » رجلاً من رجال صالح بن على المكلفين القبض على الخليفة المطرود . . . ولقى أبو عون ورجاله خيلاً لمروان فأسروا رجالها ، وقتلوا بعضاً واستحيوا بعضاً . . . وسألوهم عن مخبأ مروان . . .

وهنا كان الوفاء قد عيل صبره مع هؤلاء الأتباع ، وأحبوا أن يضمّنوا حياتهم ويؤثروها على حياة مولاهم الهارب . . . فدلوا رجال العباسيين على مكانه ، وأحلوا أنفسهم من

تبعات الولاء لسيدهم القديم . . . طلباً للخلاص ، وإيثاراً
للعافية . . .

وسار أبو عون إلى مخبأ الخليفة المنكود ، فالفوه نازلاً في
كنيسة بقرية « بوصير » من أعمال الحيزة .

وخشى أصحاب أبو عون - وهم قلة - أن يعلم مروان
وأصحابه بمجيئهم - وهم كثرة - فيقتلوهم . فلم ينم الطالبون ليلتهم
وكسروا أغناد سيوفهم ، حتى لا تقرر في الأجفان إلا بعد قتال
مروان . . .

وحمل رجل من المتعقبين على مروان فطعنه ، وهو لا يعرفه .
فلم تسمع إلا صيحة صائح يقول : صرع أمير المؤمنين !
وأراد كوفي أن يشفى غلته من الخليفة المطعون ، فاحتز
رأسه احتزازاً ، وبقي آخر الأمويين على أرض صعيد مصر
جثة بلا رأس . . .

وحمل الرأس إلى صالح بن علي حيث جاءت هرة واقتلعت
لسان أمير المؤمنين ، وأخذت تمضغه وتلتذ طعمه . وهي
لا تدري أن هذا اللسان طالما نطقت به أقدار ، ودار به الأمر
والنهي كل مدار . . .

٢٣

وكان رأس مروان ، ودمه المطلول ، ولسانه المأكول بعض
الشناء لغيظ أبي العباس السفاح . الذي سجد شكراً لله حين
رفع إليه رأس مروان . . . فقد رفع رأسه وقال . . .
الحمد لله الذي أظهرني عليك ، وأظفرني بك . وتمثل
بقول الشاعر :

لو يشربون دمي لم يرو شاربهم ولا دماؤهمو للغيظ ترويني

عرش بغداد

لعل شهوة الغضب لم تبلغ من مخرب ظافر ما بلغته من نفس
« هولاكو » سلطان التتار ، الذى صب جام غضبه على
« الخليفة المستعصم » آخر خلفاء العباسيين ، فأمر بأن يقتل قتلة
لم تعرفها مصارع الخلفاء ، ولا مقاتل السلاطين . . .

إن السيف لم يجتز رأس الخليفة المستعصم ، ولم تصبه
وهو أسير فى يد الأعداء طعنة من رمح ، أو ضربة من خنجر ،
أو رمية من سهم . . .

لقد أمر طاغية التتار « هولاكو » بأن يقتل الخليفة
المستسلم قتلة لا يراق فيها دم ، ولا يسيل منها نجيع . . . لقد
جرد حفيد العباس عم النبي عليه السلام من ثيابه الزاهية
المزركشة الموشاة بالذهب ، المرصعة باللاآء ، كما انتزع التاج
المؤتلق من فوق جبينه المهزوم ، لكى يوضع فى غرارة -- أى
زكية -- ويربط عنقه على رأسه ، ويظل يركل بالأيدى ،
ويرفس بالأرجل ، فتتلقفه أقدام الطغاة من التتار كالكرة بين

الصوالجة وهى تقذفها من يد إلى يد ؛ أو ككرة القدم تنتقل من رجل إلى رجل ، حتى يموت على أشجع حال

ونفذت مشيئة الطاغية الجبار « هولاكو » ، وصنع بالخليفة المخلوع المهزوم ما لا يليق بكرامة رجل كانت دنيا المسلمين تعج بذكره ، وكانت منابر المسلمين يرتفع فيها الدعاء له ، ويخطب فوقها باسمه ، وكان الوصول إليه أو الوقوف بين يديه أمراً من الأمر ، يحتاج إلى الوقوف بالأبواب ، واستئذان الحجاب . . .

إن مقتل هذا الخليفة الوديع الضعيف على هذه الصورة فى يوم الأربعاء ١٤ صفر سنة ٦٥٦ هـ ليثير فينا وفى كل إنسان أبلغ آيات السخط على القتل ، الذين لم تقف جرائمهم عند قتل النفوس وإزهاق الأرواح ، وإبادة المعالم ، وإشاعة المظالم ، ولكنهم أزالوا الخلافة العباسية كلها من الوجود ، ومحووا فى لحظات قصار - جبالكة السواد دولة إسلامية ، بعد أن ظلت تحكم العالم الإسلامى أكثر من خمسمائة من السنين . . .

ولكن هذا المصير المشؤم للدولة العباسية كان أمراً لا مفر منه ولا مخلص عنه . . . فقد مضت الأيام الأولى بروعتها وبجدها

وانتصاراتها وعوامل الإصلاح فيها . . . وذهبت أيام المنصور ،
والرشيد ، والمأمون بجلال أقدارها ، وعظمة حوادثها ، وعزة الدولة
فيها ، لنحل محلها أيام هزيمة ضئيلة يهون فيها السلطان ،
ويتضاءل فيها الخلفاء ، وتقوم فيها الدسائس ، ويتحكم فيها
الأجانب في قصور الملوك ، ويسود فيها الرومي والزنجي والصقلي
وكل أفاق دساس . . . وتقوم فيها للجواري والمغنيات والحظايا
دولة داخل الدولة ، فإذا الخليفة مسمول ، أو معزول ، أو مقتول . . .
ولا هانت الخلافة هانت الوزارة تبعاً لها . وهنا انصرف
الخلفاء عن اختيار الأصلح للوزارة إلى من يغلى الثمن لهم في
طلبها . . . حتى لقد وصل « ظهير الدين بن العطار » إلى الوزارة
للخليفة المستضيء لأنه كان تاجراً ، وكان يغدق الأموال على
هذا الخليفة الذي كان يحب الذهب حباً جماً . . .

ولقد طال الزمن بالدولة العباسية خمسة قرون . إلا أن نهايتها
المحزنة كانت أمراً متوقعاً ما بين يوم ويوم ، فقد اصططحت عليها
عوامل الضعف والفساد والانحلال . . . ووقف الظامعون فيها
بالمرصاد ينتظرون الساعة المحتومة ، إلى أن جاءت موجة التتار
تكتسح العالم غرباً ، فوجدت في طريقها كتلة منحلة

الأجزاء . . فلم تر كبير عناء في القضاء عليها ومحو آثارها . . .
 وكان التتر — على قساوتهم ووحشيتهم وتخريبهم — جماعة عسكرية
 منظمة محددة الأهداف ، يقول فيهم المؤرخ الموفق عبد اللطيف
 إنهم : (فصل إليهم أخبار الأمم ، ولا تصل أخبارهم
 إلى الأمم . . . وقلما يقدر جاسوس أن يتمكن منهم ، لأن
 الغريب لا يشبه بهم . . وإذا أرادوا جهة كتبوا أمرهم ، ونهضوا
 دفعة واحدة ، فلا يعلم بهم أهل بلد حتى يخلوهم ، ولا
 عسكري حتى يخالطوه . . . فلهذا تفسد على الناس وجوه الخيل ،
 وتصيب طرق الحرب . . . ونساؤهم يقاتلن كرجالهم . . . وليس
 في قتلهم استثناء ولا إبقاء . . يقتلون الرجال والنساء والأطفال .
 وكان قصدهم إفناء النوع . وإبادة العالم ، لا قصد الملك والمال)
 وأيا ما كان قصده التتار فقد كان شهر المحرم من سنة ٦٥٦ هـ
 نذيرا لعرش العباسيين بخطر عظيم . ولكن هل تنبه الخليفة
 المستعصم بالله إلى هذا الخطر الذي كان يلوح كالنار بين
 الرءاد ؟ لقد كانت الأراجيف والشائعات تسرى في أحياء بغداد
 بأن عسكري المغول يزحفون على عاصمة العباسيين بقيادة
 هولاكو . . ولكن ذلك — كما يقول مؤرخ معاصر للحوادث —

لم يحرك من الخليفة عزماً ، ولا نبه منه همة ، ولا أحدث عنده هما .
والحق أن المستعصم كان رجلاً مسالماً ، غمراً ، خفيف الوطأة
بعيد المستفز . . . بطيء التحرك . . . لا يستفز نبأ ، ولا
يستخفه خبر . . . وقد بلغ من غفلته عن أحوال مملكته أن
المؤرخ صاحب كتاب « الفخرى » قال فيه : إنه كان قليل
الخبرة بأمور المملكة ، مطموعاً فيه ، غير مهيب في النفوس ،
ولا مطلع على حقائق الأمور . . .

لقد كانت عساكر المغول تزحف من قلب آسيا متجهة
نحو الغرب كأنها ذرات من الرمل لا عدد لها . . . وكانت
رسل هولاء وعيونهم يدخلون الممالك الإسلامية يستطلعون
أحوالها ، ويتجسسون عليها ، ويسبرون أغوارها . وكان عيون
المغول يدخلون البلاد على هيئة التجار ، حتى لا يشك فيهم أحد
فيطلبون سلطان المغول على أحوال البلاد أولاً بأول . . . فإذا جاء
الخليفة العباسي نبأ بتقلم المغول مال إلى عدم تصديقه ،
وأعرض عنه جانباً ، لأنه كان متشاعلاً — فوق ضعفه وفسولة
رأيه — بسماع الأغاني ورؤية المساخر والمضاحك التي تدخل
السُرور إلى قلبه .

ولم يدرك أنه كان بهذا الحك المجلوب يرى بنفسه وبأسرته
وبمملكته إلى أعقاب بكاء طويل مرير . . .

وتتهم بعض الروايات « مؤيد الدين بن العلقمي » وزير
الخليفة المستعصم بأنه كان مخامراً مع التتار ، بل يذهب بعضها
إلى اتهام هذا الوزير بأنه هو الذي دعا التتار إلى بغداد لكي
يخلص من العباسيين ، لأنه كان شيعياً ، والشيعيون مضطهدون من
أهل السنة الذين كان العباسيون يساعدونهم . . . وهي تهمة
وجدت من المؤرخ « ابن طباطبا » دفاعاً قوياً ، حيث بقي
ابن العلقمي محكماً مكرماً في عهد هولاكو وبعد سقوط بغداد ،
فلو كان هذا الوزير خائناً أو مخامراً لقتله قائد التتار ، ولما وقع
منه الوثوق به ، والاطمئنان إليه . . .

ومهما يكن من أمر فقد وصل التتار إلى بغداد أو إلى مقربة
منها على الأصح . . . وانقسموا فرقتين : فرقة تلخها من الشرق
وعلى رأسها «هولاكو» ، وفرقة من الغرب وعلى رأسها «باجو» . ورأى
الناس التتار يطبقون عليهم ، فوقع الذعر فيهم إلى حد جعلهم
يرمون بأنفسهم في مياه النهر والنهيرات القريبة منه . وازدحم
الناس على عبور النهر فراراً بأرواحهم ، حتى ضاقت بهم الزوارق

والمراكب والألواح ، وارتفع سعر العبور حتى كان الملاح يأخذ أجرته سواراً من الذهب ، أو طرازاً من الزركش ، أو علة من الدنانير . ولم يرض الناس في سبيل اجتياز النهر بمكنون التلاد . وفي الجانب الغربي التقى عسكر من التتار مع عسكر الخليفة بقيادة « مجاهد الدين الدويدار » . وكان عسكر بغداد في غاية القلة ، فشبع فيهم التتار قتلاً وأسرّاً ، ومن نجا من هذين لم يسلم من الوحول التي كانت في الطريق — طريق العباسيين المنهزمين . وكان الخليفة في خلال معركة الجانب الغربي من بغداد جالساً في قصره يتسلى بمشاهد لحو برىء . . . كأن الجائحة بعيدة عنه . واحتل التتار الجانب الغربي من العاصمة المشرفة على السقوط بعد أن خلا من أهله ، وأخذوا يرمون بالنشاب إلى الجانب الشرقي . وكان هدف الرواة أن يوجهوا سهامهم إلى قصر الخليفة ليثيروا الرعب فيه فيستسلم . . . وكان الخليفة كما يروى ابن القوطي معاصر الحادثة — جالساً في أحد أروقة القصر ، وبين يديه جارية صغيرة من مولدات العرب تسمى « عرقة » . . . وكان فيها ظرف ودلال وطبيعة مضحكة . . . وكان الخليفة الغافل يأنس بمجلسها ومضحكها . . . فأصابها سهم دخل من

٣١

بعض الشبابيك فقتلها ، فانزعج الخليفة لمقتلها . . . ولعله انزعج لها أكثر مما انزعج لغارات التتار ! . وأمر أن يحضر السهم النافذ المصيب بين يديه ، فإذا هو مكتوب عليه : إذا أراد الله أن ينفذ قضاءه سلب ذوى العقول عقولهم . . . وأمر الخليفة في الحال أن تعمل ستائر وسدادات من ألواح الخشب ، لتحول بين شبابيك القصر وبين الرواة . . .

وأراد الله أن يتم مشيئته في الخليفة وأهل بيته ، فضغط هولاءكو بجيشه الجرار من ناحية الشرق ، وأعد عدة الحصار ، وكان الخليفة قد أمر بإقفال أبواب المدينة وإحكام الأسوار . . . ولكن ماذا ينفع هذا أمام سيل جارف من محاربين أشداء ؟

واضطرب الخليفة أن يخرج من قصره المنهار ليسلم بالطاعة والتسليم لسلطان المغول ، ودخلت عساكر المغول المدينة فنهبتها نهباً ، وأشاعت الرعب في نفوس ما بقي من أهلها ، حتى لقد قيل إن كثيراً من نفائس التراث الفكرى الإسلامى لم يسلم من الحريق أو من الغرق في مياه دجلة .

وقيل للخليفة المهزوم إن هولاءكو يرغب أن يزوج ابنته بابنك . . وأن يبقيك في منصب الخلافة على أن تكون عليك

الطاعة له ، كما كان أجدادك من العباسيين مع سلاطين
السلاجقة ... وأنزل الخليفة في سراق عند « باب كلواذى » من
أبواب بغداد ، واستدعى القواد والعطاء والعلماء ليحضروا العقد ...
فكانت كل طائفة تخرج تضرب أعناقها ... وهكذا تم للسعول
التخلص من أهل السيادة والعلم والمثالة في الدولة الزائلة . . .

وأخرج الخليفة في ذلك اليوم العصيب أثمن ذخائر القصر
وأفنى أعلاقه ، فكان من الأموال والجواهر والحلى والزر كثر
وأواني الذهب والفضة جملة عظيمة ، ولم يدرك أنه كان يخرجها
لكي يبتلعها بحر الغزاة كما ابتلعوا مملكة إسلامية بحملتها .

ولما تخلص هؤلاء من رجال الدولة الفانية ، واستولى على
كثير من أموالها ونفائسها ، وجرّد الخليفة الضعيف من كل شيء
ملكه أمر به أن يقتل ، وأن لا تراق في قتله قطرة دم . . .
فوضع في غرارة ، وظل يركل ويرفس حتى مات .

ويقال إنهم ضنوا على جثته أن تضمها صفائح قبر ، أو
تخط لها حفرة في مضجع أبدى هادئ ، فتركوها في العراء
كهشيم تذروه الرياح . . .
ولله عاقبة الأمور

ملك ينتحر غرقاً بعد ضياع مملكته

هناك على ضفة نهر من أنهار الأندلس وجد القوط المهزومون. بعد انجلاء المعركة، جواداً وثياباً وعدة من السلاح عرفوا أنها لملكهم المهزوم على يد «طارق بن زياد». فأيقنوا أن سيدهم ورب التاج في بلادهم قد ألقى بنفسه في النهر المتدفق، فراراً من عار الخزيمة التي لحقت به على يد العرب الفاتحين. ولم يوقف للملك الغريق على أثر، فقد حملته مياه النهر في اندفاعها صوب المحيط . . .

ويقول نفر من المؤرخين إن الملك «رذريق» ملك الأندلس القديمة المدبرة، قد لقي مصرعه بعد معركة حامية، بضربة من سيف طارق بن زياد، أهوى بها البطل الفاتح على رأسه فخر صريعاً.

وأيما كان الأمر فقد انتهت بانتحار «رذريق» أو بمصرعه دولة القوط في الأندلس، وهوى عرش قديم، ليحل محله عرش •

عربي إسلامي جديد . . .

ولقد دخلت المزيمة على «رذريق» من ناحية نفر من أمراء القوط الذين كانوا على ولاء لمدينة «طليطلة» عاصمة ذلك الملك الغشوم . . . فأنهم خامروا عليه ، ودلوا العرب الفاتحين على عوراته ، حتى عبروا إليه البحر من شمال أفريقيا . وساءوا عليه منافذ السبل ، وقاتلوه وأصاروا عرشه إلى أسوأ مدمير . . . ولم يكن «رذريق» غير واحد من ملوك القوط بالأندلس الذين ساموا أهلها الخسف وسوء العذاب . ولم يكن حكم القوط لتلك البلاد ثلاثة قرون — من الخامس إلى السابع المسيحي — إلا امتداداً لطغيان الحكم الروماني الذي كان يسود البلاد قبل ذلك . . .

وأهمل ملوك القوط — في الثلاثة القرون التي ملكوها . . . شؤون الشعب إهمالاً ليس له نظير . . . فأعادوا الظلم الروماني على أبشع صورة ، وقسموا الناس إلى طبقات ثلاث : طبقة الرقيق الذين لم يزدوا على أن يكونوا سواهم تمشى على اثنين . . . وقد فقدوا كل حق في الحرية والاختيار . . . حتى لم يكن أحدهم ليستطيع الزواج إلا بأمر سيده . . . والطبقة الثانية

٣٥ -

هى الطبقة المتوسطة . . . ولم يكونوا بأسعد حالا من إخوانهم
 دقيق الأرض . فقد جردهم ملوك القوط من أموالهم وقليل
 عقارهم . وفاء للضرائب الفادحة التى كانت تثقل ظهورهم وتعبي
 كواهلهم . . . وكان القليل الذى بأيديهم غرضة للمصادرة
 والضياح والانتهاك

أما الطبقة الثالثة فتجتمع فى إطارها الظالم الغاشم رجال
 الكنيسة وكبار الملاك والأشراف الذين خصتهم الأقدار
 السعيدة بشرف المنابت وهو شرف ليس للمرء فيه
 خيار . . .

وظالت طريق الملوك الطغاة تسير بهم من جيل إلى جيل ،
 ولا أمل فى إصلاح ، ولا رجاء فى تحسين . . . إلى أن انتهى
 عرش هذه المملكة إلى الملك « غيطسة » الذى سام الشعب
 الأسبانى ألواناً من الحسف ، وأذاقه كتوساً من العذاب .
 ولم يكن عند أهل الأندلس من القوة الروحية ما يصرفون
 به هذه الطاغية عن طغيانه . . . فقد قلم الظلم أظفارهم ،
 وأخذ البغى أنفاسهم فلم يستطيعوا حراكاً . . .
 ولكن الثورة على الملك « غيطسة » لم تأت من ناحية الشعب

المحطم المقصوص الجناح . . . وإنما أنته من ناحية شريف
من الأشراف اسمه « رذريق » اغتصب الملك من « غيطسة »
وانتزع التاج من فوق رأسه ، لكي يضعه على رأسه باسم الملك
« ويتيزا » ، أو رذريق كما يسميه العرب في تواريخهم . . .

ولم يشعر أهل الأندلس القداماء بكبير فرق بين عهد
غيطسة وعهد رذريق . . . فقد بقيت الأمور على حالها من
الفساد والفوضى . . . ولم يكن الإصلاح الذي يدعوا إليه
الملك المغتصب الجديد إلا ذرا لرماد في العيون ، ولم يكن اعتداله
في سيرته إلا في الأيام الأولى من ملكه . . . ولكنه بعد ذلك
انغمس في الترف ، وأغرق نفسه في اللذائذ ، واستسلم لصبرخات
الشهوة العارمة التي كانت تعتلج في صدره . . .

وكان من عادة أشراف البلاد في تلك الأيام أن يرسلوا
أبنائهم وبناتهم إلى القصر الملكي بطليطلة ، ليتلقوا عنه أصول
التربية الملكية الرفيعة ، وليعرفوا التقاليد والمراسم التي تفصل
بينهم وبين أبناء الشعب بخاجز منيع . . . ولينشأوا نشأة حسنة
يعودون بها إلى قصور آبائهم وقد حذقوا ثقافة البلاط . وأتقنوا
القصور . . .

٣٧

وكانت للملك المعزول « غيطسة » حفيذة تدعى « فلورنדה » . فهي بنت ابنته ، وأبوها « يوليان » حاكم مقاطعة كيوتا ، وكانت على جانب كبير من الجمال الفتان .

وأرسلت الفتاة الجميلة « فلورنדה » إلى بلاط طليطلة على عادة ذلك الزمان ، وأنبتها قصر « رذريق » نباتاً حسناً . . . وما زالت تحظى بالرضى في البلاط حتى كانت وصيفة للملكة ؛ وهنا وقعت عين الملك عليها فوقع من نفسه أجمل وقع . وأخذها جمالها وفتنتها ، فأضمر في نفسه أمراً . . .

ونسى الملك أن هذه الوصيفة الفاتنة ليست إلا وديعة لبيده . وأمانة في عنقه ؛ ونسى أنها إنما جيء بها إلى القصر لتتلقى قواعد القصور على وجهها الصحيح . . . ونسى أنها لم يبعث بها أبوها الكونت يوليان لكي تكون دمية يتلهى بها الملك ، ويرضى بها أحط غرائزه . . .

وفي لحظة من لحظات الشهوة العارمة اعتدى الملك « رذريق » على الفتاة الشريفة العذراء ولم تجد تلك المخلوقة الضعيفة سبيلاً إلى مقاومة ملك معتد أثيم . . .

وأخبرت « فلورنדה » أباهما بما حدث من اعتداء الملك عليها ،

فأضمر ' في نفسه شراً للملك ، وأعد عدته للانتقام للشرف
المثلوم . . .

والتجأ «رذريق» إلى «يوليان» ليعينه على مقاتلة العرب في
شمال أفريقيا ، وأمدّه بالسلاح والعتاد ليوقف مطامع العرب
لو حدثتهم أنفسهم باجتياز البحر إلى الأندلس ، ونسى
«رذريق» أنه يطلب العون من عدو متور . . .

وأضمر يوليان في نفسه الانتقام من الملك المعتدى على
ابنته ، ورأى أن يعين العرب عليه فيما لو هموا بغزو الأندلس
وأن يدهم على مواقعه وعوراته .

فلما ودع الملك يوليان عند انصرافه من حضرته طالب منه
أن يهدى إليه صقورا من التي كان يوليان يهوى تربيتها ،
فأجابه يوليان : سأتيك بصقور لم ترها من قبل . . .

لم يكن «يوليان» لامضمراً في نفسه أمراً جليلاً حين أجاب
«رذريق» بهذا الجواب . . . ولم تكن الصقور التي يعينها غير
صقور العرب الذين نوى يوليان - إطفاء لشهوة الانتقام
عنده من رذريق - أن يدهم على منافذ الأندلس ومساكنها .

ليذهبوا في جموعهم من شمالي أفريقية إلى شبه الجزيرة الأندلسية
وليحطموا عرش « رذريق » أعدى أعدائه . . .

وكان يولييان يرجو أن يقتل عدوه رذريق على يد العرب
المتوشرين إلى الفتح . . . وأن يكتفى العرب بما تصل إليه أيديهم
من أسلاب وغنائم . ثم يعودوا إلى بلاد المغرب ، ويعود تاج
الأناس إلى أولاد الملك الخلويع « غيطسة » والد زوجته .

ونسى « يولييان » أن العرب كانوا أسى نفساً وأكرم طبعاً
وأعلى غاية من أن يكتفوا من الغارة على الأندلس بأسلاب
رخيصة تافهة مهما غلت قيمتها . ونسى فوق ذلك أن العرب
لم يكونوا ليحشمو أنفسهم عناء الرحلة إلى الأندلس لو كان
أعدى همهم أن يكونوا أداة لانتقام أمير من ملك في قضية
لا ناقة لهم فيها ولا جمل . . . فإن العرب كانت لهم هم لا منتهى
لكبارها . . . وكانت أصغر همهم - لولا المبالغة - أجل من
الدهر كما يقول الشاعر .

نسى « يولييان » ذلك ، وظن أن العرب تهون الفتوح عندهم
هذا الهوان المزرى . الذى لم يكن يقوم إلا في خياله المريض ،
ولعله حسب أنهم خرجوا من أقصى الأرض في شبه جزيرة

العرب ، وبلغ بهم الانسياج في الأرض الواسعة إلى هذا الحد لكي يخرجوا مختارين من بلاد الأندلس إذا ما دخلوها فاتحين .
ومهما يكن من الأماني العراض التي علل بها يوليان نفسه ،
فقد التقى مع موسى بن نصير في بلاد المغرب وعقد معه صلحاً .
واتفقا على العمل معاً لمقاتلة « رذريق » في الأندلس ذاتها .

وأخذ موسى بن نصير يستطلع أحوال البلاد من هذا الشريف الموتور . . . فأطنب يوليان في وصفها ، وعرض أمام الأمير العربي لوحة فاتنة لهذا الفردوس المطل على بحر الروم . . .
فوصف أنهاره الجارية ، ووديانه الفاتنة ، وأرضه الخصيبة المرعة ، وخيراته الكثيرة ، ومدنه الجميلة ؛ وكشف له عن حالة البلاد ، وتدمير الطبقات ، وضعف الملوك . ومنافسة الأمراء . . . وهون عليه أمر فتحها بأن ذلك مطلب يسير المثال . . . وأنه على تمام الأهبة ليمده بالسفن التي يجتاز بها البحر لنقل جنده إلى البلاد ، وأنه سيزوده بالرجال الخبراء الذين يعرفون مسالك الأرض وطرقها ، ويكشفون لاجيش عن عورها وسهولها ، حتى يستطيع جيش الفتح أن يصرف أموره ويحمي ظهوره . . .

٤١

وتحرق قلب ابن نصير شوقاً إلى هذه البقاع التي وصفها
يوليان ، وكاد يطير إليها لو يطار إلى الأوطار بلا جناح . . .
لولا أنه على عادته كاتب الخليفة الوليد بن عبد الملك يستشيريه فيما
عرضه عليه «يوليان» ويستأذنه في الذهاب إلى هذا الهدف الجليل .
وكان الوليد بن عبد الملك أحرص من أن يندفع في الرد
بإجازة الخروج إلى الأندلس عن غير سابقة من الخبرة . . .
فكتب إلى موسى بن نصير يقول : خضها بالسرايا ، ولا تغرر
بالمسلمين في بحر شديد الأهوال

وكان البحر دائماً هو أخوف ما يخافه العرب في غزواتهم
وفتوحاتهم : ألم يصفه أحد القواد للخليفة عمر قاتلاً : خلق
كبير عليه خلق صغير . . . وهم فيه كدود على عود . . .
فقال عمر : والله لا أركبت فيه مسلماً أبداً ؟

ولكن موسى بن نصير طمأن الخليفة الوليد حين كتب
إليه بأن البحر الذي يجتازه العابر إلى بلاد الأندلس ليس
ببحر متسع ، وإنما هو خليج يبين ما وراءه . . . فكتب إليه
الخليفة : اختبرها بالسرايا ولو كان الأمر على ما حكيت . . .
فبعث موسى بن نصير رجلاً من مواليه يقال له « طريف »

في خمسمائة من الرجال ما بين راجل وفارس . وأنزلهم في أربع سفائن ، وأغار على الجزيرة الخضراء فأصاب منها مغانم كثيرة . ورجع سالماً هو ورجاله في شهر رمضان سنة إحدى وتسعين من الهجرة . . .

فلما رأى الناس ذلك رأى العين الممانات نفوسهم للغزو وخفوا إليه سراعاً . . .

ودعا موسى بن نصير مولى له من أشجع رجاله وأصبرهم على القتال، وأجرأهم في الميدان اسمه «طارق بن زياد» فبعثه في سبعة آلاف مسلم أكثرهم من الموالى والبربر . وأقلهم من العرب ، فساروا في البحر حتى لاح لهم من بعيد جبل يطل على البحر وهو متصل بالبر ، فنزلوه وسمى جبل طارق . ولا يزال يحمل هذا الاسم الكريم إلى اليوم .

وشاء الله أن يقترن اسم هذا الجبل باسم القائد الفاتح ابن زياد، وأن يظل على المدى يحمل أجمل تذكارات لأطيب مناسبة في تاريخ الفتوح العربية الإسلامية . وقد حاول الملك عبد المؤمن ملك الموحدين حين ملك الأندلس أن يغير اسم هذا الجبل إلى «جبل الفتح» ، وجرى الاسم الجديد على الألسنة .

٤٣

أياماً قصصاً ، ولكنه لم يثبت وعاد إلى الجبل اسمه الذي يخلد على الزمان ذكر ذلك القائد العظيم .

وعلم رذريق بافتحام المسلمين معقله الذي كان يظنه في منعة العقاب ، فاعتناظ غيظاً شديداً ، وجمع جموعه حتى بلغت في تقدير بعض المؤرخين مائة ألف مقاتل . . . وهي كثرة تكفي لسمحق السبعة الآلاف من المسلمين الفاتحين . فكتب طارق إلى موسى بن نصير يطلب منه المدد ليستطيع أن يثبت أمام هذه الكثرة الكاثرة ، فأمدّه موسى بخمسة آلاف من المسلمين ، وبهذا بلغت جموع العرب اثني عشر ألفاً .

وكان مع المسلمين «يوليان» عدو «رذريق» ، يلطم على عورات القوط ، ويتجسس لهم الأخبار ، ويخذل عنهم في صفوف أهل الأندلس ، والتقى الجمعان غير المتكافئين في العدد والعدة على «نهر» لكّة» من أعمال مقاطعة «شدونة» ، وكان ذلك في أخريات شهر رمضان سنة اثنتين وتسعين من الهجرة .

ولم ينفع جيش رذريق كثرت ولا عدته ، فقد كانت عوامل الضعف تسرى فيه ، وتمشى بين صفوفه المتخاذلة . . . وكان أبناء الملوك يخاربون عن يمين رذريق ويساره في غير همة

ولا حماسة ولا صدق في القتال . فقد كان رذريق وانثراً لأكثرهم ،
أو مغتصباً لآبائهم ، أو معتدياً عليهم ، ومن هنا جاءت الهزيمة
إليه ، وأسرع الخلدان إلى جيشه .

وشاء الله أن يحقق صادق وعده بأن تغلب الفئة القليلة
المؤمنة الصابرة الفئة الكثيرة الباغية ، والله مع الصابرين .
وهزم « رذريق » ومن معه من الآلاف المؤلفة .
وانجلت غيابة هذه الموقعة الطحون عن هزيمة القوط
هزيمة منكرة ، وانتصار العرب انتصاراً مؤزراً .

واستدار أتباع الملك المهزوم ليبحثوا عنه في غبار المعركة ،
فإذا هم يجدون جواده وبعض ثيابه على ضفة النهر ، فأيقنوا
أن ملكهم قد ابتلعه اليم وأخذته التيار إلى مصب النهر في
الحيط ؛ وأشيع يومئذ أن الملك المهزوم لم يطق الهزيمة فألقى
بنفسه في أحضان النهر . وسجلت بعض الكتب هذه الرواية
التي تقابلها رواية أخرى بأن « رذريق » قتل بضرربة من سيف
طارق بن زياد البطل المشيع

وهوى تاج دولة القوط في الأندلس ، ليأتلق مكانه على
جبين الدهر تاج من أكرم ما صاغته عزائم المسلمين الفاتحين .

رؤيا تنذر بزوال دولة

في السنة العاشرة من خلافة « العاصم » آخر الخلفاء الفاطميين بمصر ، استسلم ذلك الخليفة الشاب السخي الجواد إلى نوم عميق . فرأى فيما يراه النائم أن عقرباً خرجت من مسجد بمصر يعرفه ذلك الخليفة ، ولدغته . . . وقطع ذلك الحلم الرعيب على الخليفة الشاب لذاذات نومه الهنيء ، فاستيقظ مذعوراً ، وخشى أن يكون ذلك الحلم نذيراً بما يدبر له من حوله ، وخصوصاً بعد حريق الفسطاط الهائل الذي أحدثه الوزير « شاور » ، حتى لا تقع المدينة في أيدي الصليبيين .

واستدعى الخليفة الفاطمي الشاب أكبر مفسري الأحلام في عصره ، ليفتوه في الرؤيا التي أقضت عليه مضاجعه ، فأفتى أحدهم بأن شراً سيصل إلى الخليفة عن يد شخص بذلك المسجد .

وتساءل الخليفة الرابع عشر من خلفاء الفاطميين : من يكون ذلك الشخص المقيم بذلك المسجد المرئى في الأحلام حتى

يصل إلى منه الأذى ؟ فلا كنت إذن وارث خلافة « المهدي »
الفاطمي ، ولا حفيد الفاتح « المعز » إن لم أقبض على ذلك
الشخص الشرير الذي تسول له نفسه أمراً يهمل به إلى هيبة
مقامي ، وجلال سلطاني !

وأصدر الخليفة العاضد --- وهو في فورة الغضب والذعر
من تلك الرؤيا المفزعة -- أمره إلى والي مدينة القاهرة بأن يحضر
له الشرطة كل من يضادفونه في ذلك المسجد . فأحضروا له
شخصاً عاينه ثياب المتصوفة ، وملامح الزهاد ، وأمارات النساك
يقال له « نجم الدين الخويشاني » . فسأله الخليفة عن مقدمه ،
وعن سبب مقامه بالمسجد ، واستخبره عن أمور لعلمها تكشف
النقاب عن حقيقة أمره ! فأخبره ذلك المتصوف بالخبر
الصحيح ، لم يخرم منه حرفاً ، ولم يغير منه وصفاً . فرأى الخليفة
المتوجس آيات الصديق على ملامح الرجل وأقواله . وراه
أضعف من أن يناله بشر ، أو يمسه بسوء . . . فوصله بمال .
وصرفه ، وقال له : ادع لنا يا شيخ !

ولم يمض على تلك الرؤيا المفزعة بضعة عشر شهراً حتى

شاء الله أن يتحقق ذلك الحلم الذى رآه الخليفة ، وأن تقع الحقيقة بما عبر به المفسرون لتلك الرؤيا . . . وأن يكون ذلك الشيخ المتصوف « نجم الدين الخويشاني » هو بعينه الذى يوصل منه الأذى إلى الخليفة الفاطمى « العاضد » . . . فإن السلطان « صلاح الدين الأيوبي » الذى أزال دولة الفاطميين وقوض عرشهم كان قد استفتى جماعة من الفقهاء فى أمر مصادرة أموال الفواطم والقبض عليهم ، وإزالة الخلافة من أيديهم ، وكان الشيخ المتصوف « نجم الدين الخويشاني » من جملة الفقهاء الذين أخذ رأيهم . . . فبالغ فى الفتيا . . . وصرح بتعديده مساوى الفاطميين ، وأحل أهل مصر من واجب الطاعة لهم ، وأطال الكلام فى ذلك إطالة كانت من جملة الأسباب التى حملت « صلاح الدين » على التخلص منهم . وبذلك ضمت تلك الرؤيا المفترعة التى رآها الخليفة « العاضد » منذ بضعة عشر شهراً . . .

• • •

وقد شاء الله أن يتهاوى التاج من فوق رأس الخليفة الفاطمى العاضد وهو مريض يعانى أوجع الآلام ، فلم يعلم بأن الخطبة على المنابر قد قطعت باسمه ، ولم يدر - وهو فى سكرات النزع

الأخير - أن الخلافة الفاطمية بجلالها وسلطانها ومظاهرها الترف
البالغ المحيط بها قد ذهبت عنه ، بل ذهبت عن مصر الفاطمية
لتعود ثانية إلى بغداد ، وليخطب على أعواد المنابر في الدولة
الأيوبية باسم الخليفة « المستضىء بالله العباسي » في السابع من
محرم سنة ٥٦٧ هـ .

على أن المؤرخ ابن إياس يذكر بأن « العاضد » قد أعلم
بخبير قطع الخطبة عن اسمه ، فحصل له من ذلك « قهر عظيم » .
وصار مع « صلاح الدين » كالمحجور عليه ، لا يتصرف في
أمر إلا بمشورته ، ولا يبرم عملاً إلا بعد عرضه عليه . فلم يطق
الخليفة العاضد ذلك الحجر الثقيل الذي لم يتعوده أحد عشر
عاماً ، ولم يتحمل أن يكون أداة أو لعبة في يد البطل الفاتح
صلاح الدين . . . فقيل إنه ابتلع فص ألاس ، فمات من يومه .
وهكذا يروى « ابن إياس » مصرع الخليفة الفاطمي الشاب
الذي مات وهو في الحادية والعشرين من عمره .

وأياً ما كانت الموتة التي لقي عليها « العاضد » ربه فإن من
الحقق أن المرض قد أوهاه إلى حد أثار عليه إشفاق « صلاح
الدين » نفسه ، حتى لقد ضعفت قواه ، وتخاذلت أعضاؤه .

وفشت الحمى بأعضائه فشوا بالغاً . ويئس طبيبه الخاص
« ابن السديد » . وهو من أعلام الطب فى العصر الفاطمى -
من شفائه ، فامتنع عن عيادته . . وكأنه بذلك اصطلىح مع
الزمان على مساواته . . .

وفى اليوم الذى حزنت فيه قصور الفاطميين وداراتهم
ومجالسهم وأعيادهم لقطع الخطبة عنهم ، وانتقالها إلى العباسيين
فى ذلك اليوم لبست مدينة بغداد أجمل حللها ، وازينت
وأخذت زخرفها . فقد أرسل « صلاح الدين الأيوبي » إلى البطل
الملك المجاهد « نور الدين » يعلمه بقطع الخطبة عن الفاطميين
فى مساجد مصر بأسرها ، وإعادتها إلى العباسيين . وملاأت
الفرحة قلب « نور الدين » فأرسل رسوله « ابن أبى عصرون
شهاب الدين أبى المعالى » إلى الخليفة العباسى ببغداد ليعلمه
بذلك ، ويقول المؤرخ « ابن كثير » صاحب كتاب « البداية
والنهاية » إن مدينة بغداد زينت ، وغلقت الأسواق ، وعملت
القباب ، وفرح المسلمون فرحاً شديداً . . .

والذى ذكره المؤرخ « ابن كثير » منقول عن الذى جاء
فى كتاب « المنتظم » لابن الجوزى المؤرخ ، فى حوادث

سنة ٥٦٧ هـ . وفيه من الزيادة أن السكة — أو النقود — ضربت باسم الخليفة العباسي ، بعد أن ظلت تضرب باسم الفاطميين مائتين وثمانين من السنين . ولقد كان المؤرخ ابن الجوزي نفسه ممن عاصر زوال الخلافة الفاطمية عن مصر ، وإعادة الخطبة فيها للعباسيين ، وكان هواه يميل مع العباسية ، فألف في ذلك كتاباً أسماه « النصر على مصر » وعرضه على الإمام « المستضيء بالله » العباسي أمير المؤمنين .

واشترك الشعر في هذه المناسبة ، بتهنئة الخليفة العباسي بالخطبة له على منابر مصر ، بعد أن قطعها الفاطميون أكثر من مائتي عام ، فأرسل البطل « العادل نور الدين » كتاباً إلى بغداد من إنشاء الكاتب الشاعر « العماد الأصفهاني » ، وفيه أبيات طويلة منها :

قد خطبنا للمستضيء بمصر نائب المصطفى لإمام العصر
ولدينا تضاعفت نعم الله وجلت عن كل عد وحصر
واستنارت عزائم الملك العا دل نور الدين المهام الأغر
ولقد كان « نور الدين » يمهّد لنفسه ملك مصر بعد أن سقطت الخلافة الفاطمية ، وكان يدعى على منابر مصر

للمستضيء العباسي أولاً ، ولنور الدين ثانياً ، ولصلاح الدين الأيوبي من بعدهما . . . وقد حدثت النفرة فعلا بين نور الدين وصلاح الدين . واستطاع بطل موقعة « حطين » بدهائه وحسن احتياله أن يقيم نفسه سلطاناً على مصر . وأن يبدأ فيها دولة جديدة وعرشاً جديداً هي دولة الأيوبيين وعرش الأيوبيين .

* * *

والا سلمت مصر لصلاح الدين الأيوبي بوفاة الخليفة الفاطمي العاضد . جلس البطل صلاح الدين نفسه يتقل العزاء في الخليفة الشاب المقهور . . . بعد أن حضر جنازته ، وشهد عزاءه . وبكى عليه وتأسف . . . فقد كان الخليفة « العاضد » مطيعاً للوزير صلاح الدين الأيوبي حين وزر له ، وكان لا يعتمى له أمراً ، وكثيراً ما تمنى « صلاح الدين » أن لا يفجع الخليفة في عرشه بقطع الخطبة عنه ، وتنادم على إقامة الخطبة لبني العباس بمصر قبل وفاة « العاضد » . ولكن تمت مشيئة الله ، وعلم الخليفة المخلوع بخلعه . كما تذكر بعض المصادر — فجلب له ذلك الحم والمرس ، « والقهر » ، كما يقول المؤرخ ابن إياس . . .

وتوطدت أركان الحكم الأيوبي في مصر بعد موت الخليفة العاضد ، وانتهت من تاريخ مصر دولة جعلها الله واسطة بين دولتي الأخشيديين ، والأيوبيين . وأخذت الخلافة العباسية تتلفت إلى مصر من جديد بعد أن أزيلت عنها في أول الحكم الفاطمي ، وأخذ الخليفة العباسي « المستضي » بالله « يرسل إلى مصر والشام الأعلام السود ، وهي شعار الدولة العباسية . وأذن ذلك كله بأن العرش الفاطمي قد هوى إلى غير رجعة . . .

فأخذ السلطان الجديد « صلاح الدين الأيوبي » يستخرج نفائس القصور الفاطمية من أماكنها ، واستعرض — كما يقول ابن كثير — حواصل القصرين ، فوجد فيهما من الحواصل والأمتعة ، والآلات ، والملابس ، والمفارش شيئاً باهراً ، وأمرأ هائلاً؛ من ذلك سبعائة يتيمة من الجوهر ، وقضيب زمرد طوله أكثر من شبر وسمكه نحو الإبهام ، وحبل من الياقوت ، وإبريق عظيم من الحجر المانع . . . أما القضيب الزمرد فأن صلاح الدين كسره ثلاث فلق ، فقسمه بين نسائه . . . وقسم بين الأمراء شيئاً كثيراً من قطع البلخش والياقوت والذهب والفضة والأثاث والأمتعة وغير ذلك . . . ثم باع ما فضل عن ذلك ، وجمع عليه

أعيان التجار ، فاستمر البيع فيما بقي هنالك من الأثاث والأمتعة
نحواً من عشر سنين . . .

ولقد كان نصيب الخليفة العباسي ببغداد قدراً صالحاً من
الهدايا النفيسة التي كانت تزدهم بها قصور العبيدين أبناء
فاطمة . . كما كان نصيب الملك العادل نور الدين من ذلك
شيئاً كثيراً .

ولكن أروع ما في الموقف — حين اقتسمت الأسلاب
وزعت الخلفات — أن صلاح الدين الأيوبي عفا عن ذلك
كله ، وزهد فيه لنفسه ، فلم يأخذ شيئاً له ، وإنما اكتفى من
تراث الفاطميين بما كان يهديه إلى الملوك والأمراء . وهنا يذكرنا
البطل العفيف صلاح الدين بعفة الشاعر الفارس الجاهلي عنتره
العبيسي ، الذي يفتخر بقوله :
ينبتلك من شهد الواقعة أنني أغشى الوغى ، وأعف عند الغنم

لا . . لا

ونستطيع أن ننصور ضخامة التراث الفاطمي وروعة الكنوز
الفاطمية حين نرجع إلى مصدر تاريخي وثيق ممن كتب عن
دولتهم . كالمقرئزي المؤرخ ، والمؤرخ الموسوعي الشهير أبي العباس

أحمد صاحب كتاب «صبح الأعشى» ، وحسبنا أن نشير هنا — على عجل — إلى التاج الفاطمى الذى كان يركب به الخليفة فى المواكب العظام ، وكانت فيه جوهرة عظيمة تعرف «باليثيمة» زنتها سبعة دراهم ، ولا يقوم عليها لنفسها ، وحوطها جواهر أخرى .

وحسبنا أن نشير إلى «قضيبي الملك» ، وقد كان من الذهب المرصع بالدر والجوهر ، وكان الخليفة الفاطمى يقبض عليه بيده فى المواكب والحفلات العظام . وحسبنا أن نشير — على عجل أيضاً — إلى الدواة الذهبية المحلاة بالمرجان ، وإلى رمح الخليفة اللطيف المودع فى غلاف منظوم باللؤلؤ .

وحسبنا أن نشير إلى خزانة الكتب ، وخزائن الكسوة ، والسروج ، والفرش ، والسلاح ، والتجمل والمال . وقد كان فى هذه الأخيرة من الأموال والجواهر النفيسة ، والذخائر العظيمة ، والأقمشة الفاخرة ما لا تحصره الأقلام ، كما يقول صاحب «صبح الأعشى» .

وإذا كان صاحب «صبح الأعشى» متأخراً في الزمن عن سقوط الدولة الفاطمية ، فإن المؤرخ الثقة «ابن الأثير» صاحب كتاب «الكامل» قد شهد كثيراً من الأعلام النفيسة لأنه كان قريباً جداً من زمن زوال الخلافة الفاطمية ، فقد مات سنة ٦٣٠ هـ . أى بعد سقوط الملك الفاطمي بثلاثة وستين عاماً .
وحين تحدث هذا المؤرخ عن حبل الياقوت الذى وزنه سبعة عشر درهماً ، أو سبعة عشر مثقالاً قال : أنا لا أشك ! فأنتى رأيتة ووزنته . . .

* * *

وكما كان «صلاح الدين الأيوبي» عفيفاً إزاء التراث الفاطمي ، فقد كان كريماً نبيلاً مع أهل الخليفة الفاطمي ، فقد نقلهم إلى موضع من القصر ، ووكّل بهم من يحفظهم ويقوم بأمرهم حتى تتم فيهم إرادة الله . وبلغ من رعايته لهم أنه كان دائم التفقد لأمرهم حتى لا يتهاون الحراس في شأن القيام عليهم . أما عبيد قصور الخلافة وإماؤها ، فقد باع صلاح الدين بعضهم ، وعق بعضهم ، ووهب البعض الآخر . وبذلك خلت قصور القواطم من سكانها ، كأن لم تغن بالأمس ، وأخذ

الخراب والوحشة يدبان فيها ، حتى لم يبق منها أثر ولا معلم .
إلا ما كان من المساجد التي أقاموها ، فقد بقيت إلى يومنا .
شاهدة بما كان للقوم من أثر في حركة التشييد والتعمير لبيوت
الله .

ولم تذهب دولة الفاطميين بمصر في غمرة الجحود والنكران ،
أو لم تضع في زوايا الإهمال والنسيان . فقد بكأها المخلصون لها
من ذاقوا الخير على يديها ، وتقبلوا في أعطاف النعمة فيها ،
كالشاعر « عمارة اليمنى » الذي لم يكن مصرياً ، ولا شيعياً ،
ولا فاطمياً ، ولكنه كان فقيهاً شافعيّاً يمنياً ، قادم إلى مصر
برسالة من أمير مكة إلى الخليفة « الفائز الفاطمي » . فأحسنوا
إليه ، وبالغوا في بره ، وتألفوا قلبه بالإحسان ، فلدحهم بخالد
الشعر الذي يحتويه أغلب ديوانه . فلما كتب الله زوال دولتهم
على يد « صلاح الدين » رثاهم بقصيدة مؤثرة لا بأس أن نذكر
منها هنا هذه الأبيات :

رمى تيا. دهر كف المجد بالشلل	وجيده بعد حسن الحلى بالعطل
هدمت قاعدة المعروف عن عجل	شقيت! مهلا! أما تمسى على مهل؟
لبنى ولطف بنى الآمال قاطبة	على فجيعتها في أكرم الدول

قدمت مصر فأولتني خلالتفها من المكارم ما أربى على أُملى

~ ~ ~

يا عاذلى فى هوى أبناء فاطمة لك الملامة إن قصرت فى عذلى
 بالله زرساحة القصرين وابك معى عليها ، لاعلى « صفين » و « الجمل »
 وقل لأهليهما : والله ما التحمت فيكم جروحي ، ولا قرحتى بمنديل
 مررت بالقصر والأركان خالية من الوفود ، وكانت قبلة القبل
 فملت عنها بوجه خوف منتقد من الأعداء ، ووجه الود لم يمل
 أسببات من أسفى دمعى غداة خلت رجا بكم وغدت مهجورة السبل
 أبكى على مآثرات من مكارمكم حال الزمان عليها وهى لم تحل
 ومضى الشاعر المطوق بصنائع الفاطميين يعد حسناتهم من
 وجهة نظره ، فقد كان الوفاء لهم يحمله على أن يقول فيهم ما قاله
 من الشعر المؤثر المبكى .

وعلى حين نقرأ هذا الرثاء الحزين الوفى لدولة مصرية ذاهبة
 فلننا نجد من المؤرخين من يطعن فى الفاطميين جملة ، ويشك
 فى صحة نسبهم إلى أهل البيت الكريم . بل نرى مؤرخاً « كابن
 كثير » بتهمهم بأنهم كانوا من أعنى الخلفاء وأجبرهم وأظلمهم ،
 ويشير إلى البدع والمنكرات التى ظهرت فى أيامهم ، وإلى

النحل الخبيثة التي كثرت بالاشام في عهدهم .
 إلا أن المؤرخ المنصف لا يسعه أن يغفل مناصرتهم للعلم .
 ومساعدتهم للأدب ، وتشجيعهم للصناعة والفنون ، تلك الفنون
 التي تنطق بتقدم الصناعة العربية في دولتهم تقدماً منقطع النظير .

~ ~ ~

ومنذ اللحظة التي سقطت فيها دولة الفاطميين بمصر لم ين
 عدة من أتباعها عن عقد الجماعات السرية لإثارة الفتن
 ولاضطراب الأمور على الدولة الأيوبية الجديدة . وكان « صلاح
 الدين » أفطن من أن تغفل عينه عن هؤلاء الداعين سراً إلى
 انتهاك حبل العهد الجديد . فكانت عيونه ترصدهم .
 وتسد عليهم مسالك السبل ، حتى ضبطهم وهم يتفقون مع
 السودان ، ويكاتبون الفرنج . . . فقبض عليهم ، وكان فيهم
 « داعي الدعاة عبد الجبار بن إسماعيل بن عبد القوي » ،
 و « عمارة اليمنى » الشاعر الذي رثى الفاطميين بحر المرأى .
 وغيرهما من أتباع الدولة الزاهية ! وكانت خاتمة المطاف هؤلاء
 الدعاة للقواطم أن صلبوا بين القصرين ، على مشهد من أهل
 القاهرة الذين تأكلوا أن عين صلاح الدين الأيوبي .. أول

ملوك الدولة الأيوبية - لا تغفل عما يدبر في الخفاء له ولأولاده .
 واستقبلت مصر في حكم صلاح الدين الأيوبي عهداً من
 العدالة والاطمئنان والاستقرار لم يكن لها به عهد منذ أمد طويل .
 وعلى الرغم من النفائس والكنوز التي أخرجها « صلاح الدين »
 من خزائن الفاطميين وقصورهم ، فإنه لما مات بعد حكم عادل
 صالح لمصر لم يخلّف في خزائنه من الذهب والفضة إلا سبعة
 وأربعين درهماً ناصرية ، وديناراً واحداً من الذهب . . .
 ولم يخلّف . . كما يقول المؤرخ ابن شداد - ملكاً ولا داراً ولا
 عقاراً ، ولا بستاناً ولا قرية ولا مزرعة . . .
 وكذلك يكون الملوك حين يترفعون عن أطماع الدنيا الغرور .

جثة سلطان على أحد أبواب القاهرة

هناك على « باب زويلة » وعلى بضع خطوات من جامع المؤيد ، شهدت هذه البوابة الضخمة العالية مصرع آخر سلطان من سلاطين المماليك في مصر ، وبذلك طويت صفحة الحكم المملوكى ، وانقرضت الدولة الثانية من دولى المماليك ، لترسف مصر فى أغلال عهد عثمانى بغىض .

وعلى الرغم من أن سلاطين المماليك كانوا غرباء عن مصر ، دخلاء عليها ، فأنهم أوجدوا لمصر شخصية مستقلة . فلم تكن تابعة لدولة أجنبية ، ولم تكن ولاية يحكمها وال من قبل سلطان ، لاهم له إلا ما يقدم إليه من حصيللة الأموال . . .

ولقد عرف عهد المماليك — على اختلاف دولتهم — بالترف والبدخ ، والانتعاش الاقتصادى ، وحركة البناء والتعمير . كما عرف بالمشاركة فى محاربة الصليبيين ، ورد التتار الذين

كانت موجتهم تهدد الشرق الأوسط بالاجتياح ، بعد أن اجتاحتوا عاصمة الخلافة العباسية . وأزالوا دولة بني العباس . كما عرف عهدهم أيضاً باحتضان الخلافة العباسية بعد أن ضاعت من بغداد . . . فتمد عصر الساطان «الظاهر بيبرس البندقدارى» فى منتصف القرن السابع الهجرى كان يقوم بالقاهرة المعزية خليفة متباينى بجانب ساطان المماليك . . .

وظلت دولتا المماليك فى مصر قريباً من ثلاثة قرون ، أو على التحديد من سنة ٦٤٨ هـ إلى سنة ٩٢٢ هـ . وكانوا أخلاطاً من عناصر شتى وأجناس متباينة . فمنهم الجركسى ، والتترى ، والرومى . والهندي . واللاظ . والكرد ، والأرمن ، والخطا وغيرهم .

وعلى الرغم من حسنات المماليك التى لا ينكرها منصف -- كدفع الفرنجة والتتار عن البلاد ، وكتشجيع العلوم والتأليف - فإن سيئات كثيرة طبعت عهدهم بطابع المصلحة الشخصية والمنفعة الذاتية . فقد أهملوا كل حق للشعب إلا حقهم هم ، وأنقلوا كواهل الأهلى بالضرائب ، وأسخطوا العربان من أهل البلاد الذين كانت تندلع لهم كل حين نيران ثورة حامية

ودعك من رخيص المنافسات بينهم ، وتألب بعضهم على بعض ،
حتى إن السلطان المملوكي «أحمد إينال» لم يحكم إلا أربعة أشهر
عزل بعدها وتولى بعده السلطان «الظاهر خوش قدم» .

وفي مطلع القرن العاشر الهجري كان الخصاص بين مصر
والدولة العثمانية يأخذ طريقه إلى المصالحة بين قايدباي والسلطان
بايزيد العثماني . ولكن هذا الصلح المؤقت لم يكن إلا مقدمة
لحملة السلطان سليم العثماني على مصر ، في عهد السلطان المملوكي
«قنصوه الغوري» .

وقد اتخذ السلطان سليم العثماني من التجاء أخيه إلى سلطان
مصر الغوري سبباً للغضب عليها والتطلع إليها . . .
وتلاقى الجمعان في «مرج دابق» على مقربة من مدينة
حلب ، وكانت شجاعة المصريين - على قلة عددهم - كافية
لإدخال الرعب في نفوس العثمانيين ، حتى لقد هم السلطان سليم
بالفرار . . . لولا ما بدا في صفوف المصريين من خيانة بعض
النواب ، واسمه «خاير بك» فتفرقوا ، وسقط الغوري من فوق
جواده فداسته سنابك الخيل ، وضاعت جثته في غبار
المعركة الحامية .

وجاءت أنباء المعركة إلى القاهرة تحمل فيما تحمل مصرع
السلطان المصلح الجرىء الذى خرج ليطرد أعداء البلاد ،
وليصيدهم عن قصبدها بسوء ، وليؤدى الأمانة الجسيمة التى
ألقها علىه البلاد . . .

ولم تستلح القاهرة أن تظل لحظة واحدة بدون تاج وبغير
سلطان . . . لقد أقامت من « طومان باى » - وكان نائب
نغية عن الغورى - سلطانا على مصر باسم « الملك الأشرف
أبى الناصر طومان باى » .

ولم يختم الموت مهمة السلطان الغورى فى الدفاع عن مصر
الخالدة إلا ليبدأ السلطان « طومان باى » مهمته . وكان العبء
عليه ثقيلا ، لأن الأمراء حوله متنافسون متنازعون ، ولأن
مطامعهم سادت عليهم منافذ السبل ، فلا همة تدفعهم ،
ولا غرض شريف يؤلف بينهم ، غير الدس والوقوع على
بعضهم بعضا ، وقد أنهكت الخلافات أجمل ما فيهم من قوى .
فانحلت عزائمهم ، وقلت ثقتهم بأنفسهم ، وساءت ظنون
بعضهم ببعض ، فتناقلوا حين دعوا ، وتباطؤوا حين نودوا . . .
ولكن « طومان باى » استطاع أن يجمع بينهم فى ساعة الخطر

المحقق بالبلاد ، إلا أنه لم يعدم أن يلقي خيانة من الأميرين المصريين «خاير بك» ، «وجان بردى الغزالى» اللذين أوقعا هزيمة بإحدى طلائعه إلى بلاد الشام ..

وكانت جنود السلطان سليم تتقدم سريعاً نحو مصر . وكلما هم «طومان باى» بالخروج مع المماليك للقائهم خارج القاهرة قعدوا به عن تنفيذ رغبته ، وأصبروه حتى يقترب العثمانيون من القاهرة . . . كأنهم يأبون إلا أن يغزوا فى عقر دارهم . . . وغفلوا عن قول الإمام على كرم الله وجهه : ما غزى قوم قط فى عقر دارهم إلا ذلوا . . .

وبعد حوار وجدال سمحوا بأن يخرجوا إلى ناحية الريدانية قرب العباسية الحالية ، وكان فى استطاعتهم وهم فى أرض الوطن ، وعلى سلامة من وعناء السفر ، وطول الرحيل ، وخوف نفاد المئونة أن يقاتلوا العدو المغير قتالا ينقطع معه أمله فى الغزو . . ولكن روحهم كانت تنهافت ، ومعنوياتهم كانت تتداعى ، وشغلهم الحرس فى أمر أنفسهم عن التفكير فى سلامة وطنهم . واتته المعركة بدخول العثمانيين مصر وامتلاكها بعد أن فعلوا بأهلها ما تندى له الوجه . . .

ولقد أدى « طومان باى » واجبه على خير ما يؤدى الجندى
 الشجاع الأمين واجبه ، فقد ثبت فى معركة الريدانية ثباتاً عجيباً ،
 حتى كاد يكون وحده فى معركة شوهت جلالها خيانة الأمراء...
 وألجأته فضائح الموقعة الخاسرة إلى أن يفر . . . وعبر
 النيل إلى الجزيرة ، سالكاً طريق الصحراء إلى الإسكندرية .
 وفى الطريق لجأ إلى بعض أصدقائه من العربان ، وأقسموا
 له يمين الولاء والنصرة حتى يفتح الله عليه من جديد . . .
 ولكنهم كانوا يضمرون تسليمه إلى عدوه السلطان سليم ، ليشتروا
 بذلك ثمناً قليلاً ، هو الزلفى إلى الفاتح الجديد . . .
 وجاء جنود السلطان سليم العثماني ليسوقوا سلطان مصر
 الفار إليه ، وجاءوا به مكبلاً فى الأصفاد إلى معسكر السلطان
 سليم فى القاهرة .
 وكأنه استراح واستراحت ركابه من السرى والسير دفاعاً
 عن عرش منقوض . . . ولكنه لم يفقد عزة البطل الذى خذلته
 عواسل لم يكن يستطيع لها دفاعاً ، ولم يطاقئ هامته أمام هامة
 السلطان سليم المنتصر ، وإنما علا وجهه القنوط والأسف على
 مصير بلاده التى حارب من أجلها وفى سبيلها .

وكان بينه وبين السلطان سليم سؤال وجواب . . . فلم يفقده رهب الموقف حصافة الرد ، ولا حسن مواقع الكلام ، ولا سداد الجواب . . . حتى أدهش بطانة السلطان المنتصر . واستبقاه السلطان سليم قريباً منه أياماً معدودات ، ليعرف منه أحوال البلاد ، ويستطلع أمور إدارتها ، فلما تم له ما أراد ، وانتزع من جعبة معارفه بالحكم ما أحب ، أمر به أن يساق إلى «باب زويلة» ، ليعلق تحت رواق الباب بكلاب من الحديد . . . وسبق «طومان باي» في هذا الركب وقد عضت بأطرافه الأغلال ، وأركب جواداً على غير هيئته حين كان يخرج للقاء الأعداء . . .

ومر موكبه الحزين بشوارع القاهرة ، وهو في طريقه إلى الموت ، والناس والشعب والعامّة يتزودون . . . في صمت . . . بنظرات الوداع الأخير إلى بطلهم الأمين . . . وصلب البطل ، وانحنت هامته على أخشاب المشنقة . . . ولكن هامة مصر المجاهدة ، المكافحة ، المناضلة في سبيل استقلالها لم تنحن لحظة واحدة . . . لأنها مؤمنة بالله ، ومؤمنة بحقها القوى في سبيل الحياة الحرة الكريمة . . .

ملك يبكى على عرشه المنهار فتنهره أمه . .

كان السلطان المتهور المغلوب على أمره « أبو عبد الله محمد ابن أبي الحسن بن الأحمر » آخر ملوك المسلمين بالأندلس فى طريقه إلى مدينة « البشراى » التى قضت معاهدة التسليم لفردناند ملك قشتالة بأن يمضى إليها ، بعد أن نفى يديه من غرناطة وقصر الحمراء ، وبعد أن هوى التاج الأندلسى من فوق رأسه إثر هزيمته أمام المسيحيين . . .

ونخرج الملك المغلوب من قصر الحمراء بعد أن ودعه الوداع الأخير ، وبعد أن تزود منه بنظرات ملؤها الأسى والأسف على هذا العرش المزال ، والملك المذال . وفى طريقه إلى محبسه الذى فرضته عليه معاهدة التسليم أشرف فى شعب « تل البانول » على غرناطة ، واكتحلت عيناه بآخر منظر لها وهى ذاهبة عنه ، وهو ذاهب عنها إلى غير معاد . . .

وطافت برأسه ذكريات عزيزة غالية لهذه المدينة التي كانت عاصمة مملكته، والتي شهدت ملك «بني الأحمر» وعظمتهم لأكثر من قرنين من الزمان . . . ووقف الملك المغلوب لحظة وهو على الطريق يتملى بمنظر العاصمة الداهية والقصر المتروك قبل أن تحرم عيناه جمالها إلى الأبد . . .

ولم يستطع — وهو إنسان ذو قلب — أن يجبس دموعه ، فأجهش بالبكاء ، وخانته الشجاعة التي قد تخون الرجال في مثل هذه المواقف ، فأخذ يبكي على هذا الملك والمجد اللذين وليا الأدبار .

وكانت أمه الأميرة «عائشة» معه في هذه اللحظة العصبية ، في الركب السلطاني المخدول الذي حكمت عليه الأقدار بالتجريد من السلطان ، والخروج من الأوطان .

ولم يعجب الأم الحزونة منظر ولدها السلطان المغلوب المطرود وهو يبكي ، فالتفت إليه قائلة :
ابك مثل النساء ملكاً مضاعاً لم تحافظ عليه مثل الرجال

لقد كانت هذه الربوة التي أشرف منها «أبو عبدالله» على

مملكته الذاهبة ، وعاصمته الضائعة ، والتي تنهد فيها تنهدة حارة أسفاً على ملكه الذى كتبت الأقدار عليه الروال ، والتي احتشدت فيها ذكريات الأمس كله وازدحمت على ذاكرة الساططان المغلوب . كانت هذه الربوة مثاراً لتسمية شعرية أطلقها الأسبان على ذلك المكان ، فأسموه « زفرة العربى الأخيرة » . . .

ومضى أبو عبد الله الملك المغلوب إلى سبيله الأخير ، حيث سيأتى عما قليل وصف للحوادث التى أدت إلى تهاوى التاج الإسلامى من فوق مفرقه .

كان أبو عبد الله بن أبى الحسن ضحية الفتن التى حدثت بين أهراء المسلمين فى أخريات عهد الأندلس ، فلقد كان الأمراء فى شغل شاغل بمنازعاتهم عما يدبره لهم العدو الراصد المتربص .

وقد ضيق الأعداء عليهم تلك الرقعة الأندلسية الرحبية حين كانت تقع بلادهم فى يد الأسبان بلداً إثر بلد . . . وكان سقوط هذه البلدان سبباً لانتشار لون من رثاء المدن فى الأدب العربى . . . ولا نزال نذكر القصيدة أو المراثية الشعرية

المؤثرة التي نظمها الرندي في رثاء بعض مدن الأندلس ، والتي
يقول فيها :

لكل شيء إذا ماتم نقصان
هي الأمور كما شاهدتها دول
أعندكم نبأ من أهل أندلس
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم
ماذا التقاطع في الإسلام بينكمو
وأنتمويا عباد الله إخوان ؟
وقد أخذ الشاعر في قصيدته يعدد القواعد الأندلسية
الضائعة في يد الأعداء ، والتي أخذت تتهاوى من عقد الأندلس
قائلا :

دهى الجزيرة أمر لا عزاء له
فاسأل بلنسية ما شأن مرسية
وأين قرطبة دار العلوم فكم
وأين حمص وماتحويه من نزه
قواعد كن أركان البلاد فما
هوى له أحد وانهد ثهلان
وأين شاطبة أم أين جيان
من عالم قد سما فيها له شان
ونهرها العذب فياض وملآن
عسى البقاء إذا لم تبق أركان؟

والحق أن بقاء المملكة الأندلسية لم يكن متوقعا ولا مرجوا

بعد أن أخذت أركان البلاد تنهار من كل جانب ، وكان ذلك منذ القرن السابع الهجرى . ولا نكاد نبليغ القرن التاسع حتى نرى الأحداث تتطلع ، وحتى نرى الانحلال يدب فى مملكة ضاقت حدودها إلى شريط ضيق من الأرض حول مدينة غرناطة ، بعد أن كان شبه الجزيرة الأندلسية كلها فى يد العرب . والحق أن منافسات الأمراء هى التى قضت عليهم وأزالت الملك كله جملة من أيديهم ، وأصارتهم إلى المصير الحزن الذى آلت إليه الأندلس بسقوط غرناطة وضياع ذلك الفردوس الجميل .

ولم يسلم السلطان « أبو الحسن » والد السلطان المغلوب « أبى عبد الله » من شرر التنافس ، ولم يصل إلى الملك إلا بعد صراع شديد بينه وبين منافسيه . وكان له أخ اسمه « أبو عبد الله » المعروف « بالزغل » فلم يسلم الأخ من منافسته . على أن الزغل نفسه كان منافساً لابن أخيه « أبى عبد الله » السلطان المغلوب ، ودارت بينهما من المخاصمات والمخاربات أمور أفاد العدو منها أكبر فائدة ، فكان ينصر هذا على ذاك ، ويضرب واحداً بالآخر ، حتى قضى عليهما معاً ، وقضى على

الدولة الأندلسية كلها القضاء المحتوم في سنة ٨٩٧ هـ .
وفيما كان مسلمو الأندلس يختلفون فيما بينهم ، ويمزق
الخلاف أوصالهم ، ويقطع التدابر حبالهم ، كان الأسبان يبرمون
أمرهم ، ويحكمون عقدهم ، وينظّمون صفوفهم لكي يتم لهم
بالاجتماع والاتحاد القضاء على المسلمين . وزادت قوة الأسبان
باقتران فردناند وإيزابلا ، وإعلانهما ملكين لمملكة قشتالة قبل
سقوط غرناطة ببضعة عشر عاماً .

وأصبحت « قشتالة » بهذا الوضع الجديد مبعث الشر
ومصب البلاء على مملكة غرناطة . . . فمنها تخرج الغارات ،
وفيها تدبر المؤامرات ، وإليها تعود المعاهدات والمكاتبات للتفريق
بين المسلمين . . .

وليس من شك في أن السلطان « أبا الحسن » والد السلطان
المغلوب « أبي عبد الله » كان مسئولاً إلى حد كبير عن الحوادث
الحزنة وعن النهاية الأليمة التي انتهت إليها الأندلس ، فقد كان
له ولدان من فتاة أسبانية جميلة تزوجها فأسلمت وتسمت باسم
« ثريا » ، على حين كان له ولدان من الأميرة العربية « عائشة » ،
وأحد الولدين هو « أبو عبد الله محمد » سلطاننا المغلوب . . .

٧٣

وانقسمت الأندلس قسمين : ففريق يتعصب للأميرة عائشة الحرة ولابنها محمد أبى عبد الله، ويرشحه للعرش لأنه صريح النسب لم يفسده الدم الأسباني . . . وفريق يتعصب لابن الأميرة الأسبانية ثريا ، ويتلقى من هذه الداهية كل توجيه وتشجيع . . .

واستجاب الملك الشيخ الضعيف لرغبة الأسبانية الفاتنة ثريا ، فحرم زوجته الأميرة عائشة وولديها كل عطف ورعاية ، وغضب عليهم بعد لآى ، فقذف بهم فى برج «قمارش» ، من أبراج «الحمرء» ، وشدد الحراسة عليهم ، وأسرف فى إساءة معاملتهم . . .

وأمعن الملك الشيخ الضعيف فى الغضب على زوجه وأولاده ، فنزل عن العرش لأخيه « أبى عبد الله الزغل » . وبذلك ضاع الملك من ولد الأميرتين المتنافستين : عائشة العربية ، وثرىا الأسبانية . . .

وكان هذا التنازل سبباً لقيام المنافسات بين « أبى عبد الله محمد » وبين عمه « أبى عبد الله الزغل » الذى نزل له أخوه عن الملك . وقد اكتوت غرناطة فى بضع السنوات الأخيرة

قبل سقوطها بنار هذا الخلاف الذى قام بين العم وابن أخيه . . .
وانقسمت العاصمة المشرفة على السقوط إلى معسكرين ، أحدهما
يناصر «أبا عبد الله الرغل» ، والآخر يناصر ابن «أخيه أبا عبد الله»
الذى هوى تاج الأندلس من فوق جبينه . . .

ولقد وقفت الأميرة عائشة الحرة بجانب ولدها «أبي
عبد الله محمد» فى أخرج ساعات الصراع والقتال بين الولد
وعمه . . . وكان حى «البيازين» من أحياء غرناطة ينتصر
لأبي عبد الله محمد ويتعصب له ، على حين كانت بقية
المدينة تنتصر للزغل . . وفى خلال هذا الخلاف الدموى الثائر
بين اثنين من بيت الملك الأندلسى كان فردناند يتترع البقية
الباقية من الأندلس بلداً تلو بلد .

واستطاع أبو عبد الله محمد أن يبعد عمه من طريق العرش ،
وأن يتبوأه هو ، ولكنه لم يهنأ به ، فأن عمه «الرغل» ظل يناوئه
ويستعدى عليه الأسبان ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك فسار
إلى ملك المسيحيين وعرض عليه طاعته ، فأجابه فردناند
إلى مطالبه . وكانت نتيجة ذلك أن بلغ الأسبان مدينة «وادي
آش» سنة ١٩٥ هـ ودخلوها وبسطوا سلطانهم على كثير من

الأراضي التي كانت في حوزة «أبي عبد الله الزغل» .
 والتفت «الزغل» حواليه فوجد نفسه لا يعدو أن يكون
 تابعاً حقيراً من أتباع الملك فردناند ، وأيقن أن تلقيه بملك
 «أندرش» لا يعدو أن يكون مهزلة أتقن الداهية فردناند
 إخراجها . . . فنزل عن حقوقه وامتيازاته التي وهبها له الأسبان
 وعبر البحر إلى بلاد المغرب ، لعله ينعم فيها بهدوء يكفر في
 خلاله عما أساء به إلى وطنه وقومه .

ولما غادر «الزغل» الأندلس إلى بلاد المغرب خلا الجو
 لابن أخيه «أبي عبد الله محمد» الذي تخلص بهذا من أكبر
 منافس له . ولعل «أبا عبد الله» في غفلته قد اطمأن بهذا
 إلى أعدائه الأسبان وعلى رأسهم فردناند . . . ولم يدر أنهم
 كانوا يترصدون به الدوائر ، ويتحينون الساعة الملائمة للخلاص
 منه ومن مملكة غرناطة الأندلسية ، ومن المسلمين جملة . . .

وحانت الساعة المرتقبة التي كان الأسبان يعدون لها
 اللحظات ؛ فقد أرسل فردناند إلى «أبي عبد الله محمد» يطلب
 منه تسليم قصور الحمراء — وهي مقر الملك والحكم في الأندلس —
 على أن يبقى أبو عبد الله مقياً في غرناطة في طاعة الأسبان وتحت حمايتهم .

وقد كان يمكن أن يحمل الضعف والانكسار الملك
«أبا عبد الله محمد» على قبول التسليم، ولكن أهل الرأي حول الملك
وكبار القواد أشاروا عليه بالرفض، وأعلنوا— في حماسة— استعدادهم
للجهاد، وعزمهم على القتال والدفاع عن هذا المعتقل الإسلامي
إلى آخر رمق من حياتهم

وعاد الرسول إلى فردناند وإيزابلا يحمل إليهما عزم المسلمين
وتصميمهم على الدفاع، مهما يكن الثمن غالياً .

وتعرض المسلمون بعد هذا الموقف لألوان من غارات
المسيحيين العنية التي كان يؤججها الغيظ من هذا الإباء
العربي الكريم . . . وحمل الذعر كثيراً من المسلمين على الفرار
من المدن التي كانت عرضة لحملات الأسبان، وخرج كثير
منهم إلى بلاد المغرب بعد ما أيقنوا أن وطنهم الحبيب يعالج
النزع الأخير . . .

وفي غمار هذه الفتن كانت «غرناطة» في ثباتها ومنعتها تمثل
الصلابة التي لا تلين أمام الأحداث . . . فقد ازدحمت بالوافدين
عليها، وأصبحت مبعثاً للثورة وإشعال الحمية في نفوس المسلمين .

وصدم «فردناند» على أن يخمد أنفاس المسلمين بإخاد هذه المدينة المقاومة المصابرة ، فضرب حولها الحصار أشهراً ، وأهلها يغالبون الأهوال ، ويعانون من صنوف المحن والبلايا ما لا يحتمله إلا ذوو البأس الشديد .

وبلغ الطول والضيق بالمسلمين حداً لم تعد تنفع فيه شجاعة ولا يغنى فيه اضطبار . . . فقد أنهك الجوع والمرض والذعر أهل المدينة المحاصرة ، وفقد المسلمون كل أمل في الخلاص من هذا الموقف العصيب ، فاتفقت كلمة الكبراء والقواد على التسليم ، بعد أن أدركوا أن الناس قد ضعفت أرواحهم ، وانحطت معنوياتهم ، وانهارت أعصابهم إلى حد لا تنفع معه مقاومة .

ووضعت شروط تسليم غرناطة بعد مفاوضات أحاطها الكتمان الشديد ؛ وكانت شروطاً أملت بها القوة ، وقبلها الضعف الذي لا يجد سبيلاً غير الإذعان . . . وقدم المسلمون رهائنهم من الرجال والفرسان توكيداً لتنفيذ معاهدة التسليم . . . وبلغ عدد الرهائن خمسمائة ، ولما دخل الأسبان المدينة الإسلامية الضائعة واطمأنوا إلى مواقفهم فيها ردوا الرهائن من الرجال .

ودخل فردناند المدينة مزهواً منتشياً بخمر الانتصار ، وظل إلى آخر النهار يتنزه في «الحمرء» ويحبل بصره في روائعها وآثارها . . . وكانت قد تأثرت بالأنفاط والمحرقات والمدافع وغيرها ، فأمر بترميمها في الحال وإصلاح شأنها .

*
» »

وخرج الملك المقهور «أبو عبد الله محمد» من الحمرء ، وحددت له لحظة يلتقي فيها مع غالبه فردناند ، فكان لقاء مؤثراً . . . وقدم أبو عبد الله لفردناند مفاتيح «الحمرء» قائلاً : أيها السيد ؛ إن هذه المفاتيح هي الأثر الأخير للدولة العرب في أسبانيا ، وقد قضى الله أن يصير إليك ملكها . . . فكن عادلاً في انتصارك ، رحماً في ظفرك .

ومضى الملك المقهور في طريقه إلى «البشرات» حيث لا تاج ولا عرش ولا سلطان . وبكى الملك وهو مشرف على «الحمرء» من ربوة عالية حين استعاد في لحظة قصيرة ذكريات ملك مضاع ، وهنا نهرته أمه الأميرة «عائشة» لأنه يبكي كالنساء على ملك لم يصنه صيانة الرجال . . .

ولم يطق السلطان المغلوب البقاء في الأندلس ، فخرج

٧٩

بأهله وأولاده إلى بلاد المغرب ، واستقر به المقام في مدينة
 « فاس » ، وبنى فيها بعض القصور على الطراز الأندلسي
 لا المغربي ، وقد أدركها المؤرخ « المقرئ » صاحب « نفح الطيب » ،
 ورآها ودخلها في القرن الحادي عشر الهجري
 وبقى السلطان المقهور في مدينة فاس في شبه عزلة عن
 العالم يعتذر عما أسلفه ، ويتلهف على ما خلفه !
 ولعل الدموع لم تسعفه هنا ، ولم يسعده البكاء في مناه
 عن الوطن أو منفاه . . . ولعله قد استنفد دموعه كلها يوم
 أن ودع « الحمراء » ، وهو في طريقه إلى « البشرات » . . .

من الخلافة إلى الجمهورية

كان الانقلاب الذى حدث فى تركيا الحديثة فى أعقاب الحرب العالمية الأولى أمراً لا بد منه بعد أن أخذت أوضاع العالم تتغير ، وبعد أن أخذت شرارات وجنودات تنهقل من مكان إلى مكان .

ومنذ قام « كمال أتاتورك » بحركته النضالية فى سبيل استقلال تركيا ، وخاصة بعد أن احتل اليونان أزمير وأساءوا فيها الفعل والتصرف — منذ ذلك الحين بدأ النضال يأخذ شكلاً مسلحاً ، وأخذت الانتصارات العسكرية يتلو بعضها بعضاً .

وكانت هزيمة اليونان فى أزمير سنة ١٩٢٢ مثاراً للدهشة الحلفاء من ناحية ، ونقطة تحول فى السياسة التركية من ناحية أخرى ، وكان كل شيء ينبئ بأن البلاد التى جلس على عرشها آل عثمان مقلمة على أمر خطير .

وبينا كانت حكومة الكماليين فى الأناضول تقوم بواجبها

نحو تطهير البلاد وتخليصها من براثن الأجانب ، وتوجيهها نحو مستقبل يهيئ لها أن تحيا حياة كريمة ، ويعوض عليها ما أضاعته منها الحروب وخاصة حرب سنة ١٩١٤ - بينما كان ذلك يجري في أنقرة عاصمة الحكومة الجديدة كانت وزارة توفيق باشا القائمة في القسطنطينية غافلة عن هذه الحقيقة ، ومتناسية أن البلاد لا يمكن أن تديره حكومتان : واحدة في أنقرة حيث الحركة الكمالية ، وأخرى في عاصمة الخلافة وعلى شواطئ البوسفور حيث يجلس السلطان «محمد وحيد الدين» على عرش آبائه . . .

واقعد بلغت الغفلة وتجاهل الحقائق من الوزير توفيق باشا حداً جعله يبرق إلى الزعيم أتاتورك في أنقرة يذكره بأن تركيا مقبلة على أن تقتعد مقعدها في مؤتمر الصلح ، وأنها لا بد أن تجلس في المؤتمر وهي قوية موطنة ثابتة الدعائم . . . وأن الذي يجب أن يمثلها في المؤتمر أعضاء من حكومة الانقلاب بأنقرة ، وأعضاء من حكومة الخلافة بالقسطنطينية على السواء . . . وكأنه كان بذلك يشير من طرف خفي إلى أن مركز السلطان والخليفة محمد وحيد الدين يجب أن لا يغفل في هذا الوضع الجديد . . .

ولم يدر هذا الوزير المتجاهل المتغافل أنه بهذه البرقية العجيبة إلى زعيم الانقلاب كان يلدق ناقوس الخطر على مصير الخلافة والسلطنة . . .

ومن الضروري أن نشير إلى أن الخلافة والسلطنة كانتا تجتمعان في شخص الخليفة العثماني ، وأن سلاطين آل عثمان — منذ انتقلت الخلافة إليهم من مصر — كانوا يجمعون بين السلطتين في يد واحدة . . . ولم يسكت الوزير الغافل توفيق باشا على برقيته التي كانت موضع التندر عند الزعيم أتاتورك وأعوانه ، بل أرسل برقية مثلها إلى مجلس الأمة الكبير ، بعد أن أنذره أتاتورك بالانسحاب من هذا الطريق الوعر المخفوف بالأخطار ، وبعد أن حملة مسؤولية ما يقع في البلاد من فوضى بسبب هذا الاتجاه . . .

ورأى الزعيم أتاتورك أن يحسم الداء حسماً سريعاً ، في غير تلكؤ ولا إهمال . . . فاجتمع مجلس الأمة في أنقرة التي كانت مركزاً للحركة الكمالية وقرر في أول نوفمبر سنة ١٩٢٢ مادتين اثنتين كانتا أول السطر في كتاب الانقلاب الخطير . . .
لقد كانت المادة الأولى تنص في صراحة وجراءة على أن

سلطة الحكم في تركيا تتركز في المجلس . . . وأن المجلس قائم بالفعل على مباشرة هذه السلطة ، وأن الحكومة الموجودة في الآستانة والمستندة إلى السلطنة تعتبر حكومة باطلة .

أما المادة الثانية فتتص على بقاء الخلافة في الأسرة العثمانية بعد أن نزع من السلطنة . . . وتركت هذه المادة للمجلس الأمة حق الاختيار لمنصب الخلافة من الأصلح والأرشد من آل عثمان . . . ولم تكن الأصلحية في هذا الوضع الجديد لتقاس بغير معيار العلم والخلق . . .

وكانت المذكرة التفسيرية لهذا القانون الذي فصل السلطنة عن الخلافة تعتمد على اتهام السلطان بتآمره مع الأعداء ضد الحركة الكمالية التي كانت تهدف إلى النضال والاستقلال .

ولم يقنع الخليفة الذي أقصى عن السلطة والسلطنة بأن ينكمش مركزه إلى حد جعل منه صورة مجردة من كل سلطان ، فقد التفت حوالبه - في إطار هذا القانون الجديد - فوجد نفسه وقد زال عنه سلطان الحكم ، وجلال الأمر والنهي ، ووجد الأحكام الجديدة تصدر عن غير إرادته ، فلا تحمل اسمه ، ولعله أدرك أن هذه الخطوة يفصله عن السلطنة وإلغاء السلطنة

من البلاد ستعقبها — قريباً أو بعيداً — خطوة أخرى بإلغاء الخلافة نفسها من تركيا ، وذهابها إلى غير معاد . . .

ومن يدري فلعله وصلته بإحدى طرائقه الخاصة أنباء المناقشات العنيفة في مجلس الأمة بأنقرة ، والحملات التي حمليها النضاليون على بيت الخلافة ولقبها الذي لم تربح منه البلاد ، بل كان غروماً عليها أكثر مما كان غنماً لها . . .

ولم يطق الخليفة البقاء في قصر الخلافة بلا سلطان . . . ولعله كان يمني نفسه منذ اختيار للخلافة من الكماليين بأن يشهد ألواناً من النعيم الذي شهده آباؤه من السلاطين . . . فلماذا ضاع أمله في ذلك بلحاً إلى إنجلترا ووضع نفسه تحت حمايتها لتعينه على أن يغادر البلاد في ظلال الأمن والعافية . . .

وجلس الزعيم أتانورك يوما في دار الرئاسة بأنقرة فإذا ببرقية تأتيه من « هارنجتون » القائد الأعلى للقوات الإنجليزية . . . وفيها أن الخليفة قد وضع نفسه تحت الحماية الإنجليزية . بعد ما تبين له أنه رأى حريته وحياته في خطر . . . وأنه التمس من القيادة الإنجليزية أن تعينه على مغادرة الآستانة . . . وذكرت البرقية أن القائد نفسه قد ذهب إلى قصر السلطان ورافقه إلى

٨٥

سنيينة حرية لإنجليزية . . . وأن السلطان كان ولا يزال موضع
العناية الفائقة . . . وأن رغباته تبلغ أولاً بأول إلى الملك جورج
الخامس . . .

ولم يكن أمام مجلس الأمة حين قرأ هذه البرقية يوم ١٨
نوفبر سنة ١٩٢٢ إلا أن يجتمع على عجل ، وأن يقرر خلع
محمد وحيد الدين من الخلافة ، لأنه لم يعد صالحاً لها بعد ما كان
من تصرفه الأخير . . .

وما كان ليصدر قرار خلع وحيد الدين بغير أسباب قوية
تسوغ موقف الكالين أمام عواطف الملايين من المسلمين . . .
وكان أقوى الأسباب التي انصبت على رأس الخليفة المخلوع أنه
خان الأمانة التي ألقاها الله عليه بوصفه إماماً للمسلمين . . .
فقد انضم علانية إلى أعداء الدين . . . وناوأ حركات المجاهدين
الذين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والوطن . . . وكان
قرار الخلع مدعماً بفتوى دينية استصدرها الزعيم أتاتورك من
بعض رجال الدين ليوهن بها موقف الخليفة المعزول .

وكان أتاتورك كان يثار بهذه الفتوى لنفسه . . . فقد
أصدر الخليفة قبل ذلك فتوى ضد الزعيم المجاهد بأنه خلع طاعته

من السلطان الذى أمر الله بطاعته ، وأنه لذلك يحق محكم الله فيه
بالبغى والفساد . . .

وحملت البارحة الإنجليزية السلطان المعزول ، ومضت به
على أمواج البحر المتوسط — أو بحر الروم — تاركاً البلاد وراءه
تغلى وتناضل فى سبيل استكمال سيادتها واستقلالها .

* * *

ولم يكن عزل وحيد الدين ليحسم مشكلة الخلافة على
أحسن الوجوه وأضمنها لسلامة البلاد وهى فى مهب الريح
العاتية . . . فقد كانت العيون مفتوحة على كل ما يجرى فى الدولة
الجديدة المنتصرة ، وكان الحساد يبغون تركيا عثرة تنتكس بها
حركتها المباركة ، ورأى بعض أعضاء مجلس الأمة أن ينتهزوها
فرصة للتخلص من الخلافة العثمانية جملة ومن الخلفاء . . . ورأى
الآخرون أن الساعة لم تحن بعد ولم تحل أشراتها . . . فقرر
المجلس تنصيب خليفة جديد بدلا من الخليفة الخائن المعزول . . .
ووقع الاختيار على عبد المجيد — ابن عم وحيد الدين — ليكون
خليفة على المسلمين .

ولم يكن نصيب «عبد المجيد» فى تمثيلية الخلافة بأسعد من

نصيب ابن عمه المعزول . . . فقد وضعه أتاتورك على عرش آل عثمان ذراً لآرماد في العيون . . . والواقع أن الزعيم كان يعتقد عبث هذا المنصب الذي أصبح سخرية الساخرين . . . وكان أكثر أعوانه وأنصاره في النضال يرون هذا الرأي ، ولكنه لم يجد الوقت مناسباً بعد لاتمخلص من منصب الخلافة كما تخلص سنة ١٩٢٢ من منصب السلطان . . .

وجاء إعلان الجمهورية التركية في أكتوبر سنة ١٩٢٣ خطوة تمهيدية فسيحة لإلغاء الخلافة وتحقيق الأمنية التي كانت تجيش بها صدور أعضاء الانقلاب وأعوان الزعيم . . . وجاءت المادة الأولى من الدستور التركي الجديد تعلن أن شكل الدولة جمهوري . . . وأن رئيس الجمهورية هو رئيس الدولة ، وبالطبع كان أتاتورك أول رئيس للجمهورية في عهدها الجديد .

، ، ،

وبينما كانت أنقرة تعج بنشاط الحكومة ، وتقرر فيها معابر الأمور على النحو الذي يحقق آمال البلاد ، كانت الآستانة... في بعدها عن أنقرة تشهد نشاطاً من نوع جديد... فقد كان قصر «الخليفة عبد المجيد» يروج بالزوار الذين تهاووا إلى

العاصمة الإسلامية القديمة من كل حذب لكي يقدموا إلى خليفة المسلمين ولاءهم ، ويؤكدوا له حبهم ، وينفجوه بالهدايا الثمينة . . . بل بالغ بعضهم في المصانعة والمداهنة ، حتى أن الخليفة ورم أنفه .. أو كاد .. من كثرة ما كان يسمع من عبارات التمجيد والدعاء والرجاء إلى الله أن يبقى الخليفة ، وأن لا يمس منصبه الجليل بسوء

وزادت الحركة بما كان يملها به أنصار الخلافة والعاطفون عليها من مختلف أُم الإسلام ، حتى كان للخليفة عبد المجيد حزب كبير ، وكان له أنصار في تركيا ذاتها وفي غيرها من الأقطار . . .

وأخذ الخليفة الطموح يصطنع لنفسه عظمة في الخلافة ، ويصنع الأسباب لتفخيم منصبه وإعلاء شأنه . . . فزاد من صلاته مع الهيئات والشخصيات الإسلامية العالمية ، وفتح قصره الرحيب الفخم لكل وافد ، وكان بريدته اليومية طافحاً بآلاف الرسائل التي تحمل العطف والتشجيع . . .

ولم يجبس نفسه في زوايا القصر كما صنع «وحيد الدين» من قبله . . . ولكنه كان يخرج في مواكبه إلى الصلاة الجامعة في

ذلك الركب التقليدى الرائع . . . وكانت تقام له مراسم البلاط كما كانت تقام فى عهد السلاطين ذوى النفوذ . . . واستقبل ممثلى الدول كما كان يستقبلهم آل عثمان فى عهود الازدهار . . . وأبقى العادة من رسم «الأعطيات السنية» ، وإصدار الإرادات «الخليفية التشريعية» . . .

وأمن الخليفة الطموح فى إيهام العالم الخارجى بسلطته وتأثيره وقوة نفوذه وسلامة مركزه ، فخلع على نفسه بمرسوم «خلافى شريف» لقب «خليفة رسول رب العالمين ، وخادم الحرمين الشريفين عبد المجيد بن عبد العزيز خان» . . . وتوج هذه المظاهر والمراسم كلها بأنه اتخذ لنفسه لباساً خاصاً على هيئة السلطان محمد الفاتح . . . عملاً بقول الشاعر : فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم . . . وأحفظت هذه المهازل التمثيلية رجال الانقلاب وعلى رأسهم الزعيم أتاتورك الذى وجدها فرصة مواتية للقضاء على هذا المنصب . . . وذكرت هذه المهازل رجال الانقلاب بالدور الذى لعبته الخلافة ، فكانت تطعن الحركة الكمالية من ظهرها ، وكانت تصدر الفتاوى الشرعية ضد رجالها . . . واجتمع قديم السخط على الخلافة مع حديث السخرية منها ، فوطد الزعيم العزم

على إلغائها ، واعتمد في ذلك على نصيره : عصمت ، وفوزى .
وأخذ الزعيم قبيل انعقاد مجلس الأمة في أوائل سنة ١٩٢٤
يمهد السبيل لإلغاء الخلافة ، ويلقى بذور الفكرة في كل كلمة
يقولها ، تهيئاً للجو . وفي إحدى خطبه بالمجلس أشار من طرف
خفى إلى ذلك بمناداته بضرورة تدعيم الجمهورية مهما يكن
السبيل إلى ذلك ، وبسد كل ثغرة يمكن أن ينفذ منها خطر على
البلاد . . . فكانت تلك الإشارة نذيراً بالعصبة التي دوت في
جلسة ٣ مارس ١٩٢٤

ففي ذلك اليوم التاريخي كانت قاعة المجلس الوطني تنبئ
بأن حدثاً خطيراً سيحدث . . . وحينما أخذ الأعضاء يناقشون
سياسة الميزانية العامة للدولة ، ويبحثون خصصيات الخليفة والخلافة
بما تحمله من تكاليف باهظة ، وينقبون عن خبايا الأمور
الشرعية والأوقاف . تقدم خمسون نائباً من نواب المجلس بمشروع
قانون ينص على إلغاء الخلافة وإخراج الأسرة العثمانية من البلاد ،
وكان أحد النواب من علماء الدين من الخمسين الموقعين على
المشروع . . وبذلك انتهى القول بأن هذه الحركة مدنية محض ،
فهذا عالم بالدين ومطلع على مسألة الخلافة من ناحيتها الدينية ،

وعارف بأقوال إخوانه العلماء والفقهاء فيها، يقرر إلغاء هذا المنصب مع إخوانه النواب . . .

وأقر مجلس الأمة القانون المقترح ، وكانت مواده تنص على خلع الخليفة ، وإلغاء الخلافة ، وحرمان الخليفة المخلوع وأفراد الأسرة العثمانية ذكوراً وإناثاً هم وأصهارهم من الإقامة داخل حدود الجمهورية التركية إلى الأبد ، وإجبار هؤلاء جميعاً على مغادرة البلاد في ظرف عشرة أيام ، وهي المدة التي حددها القرار لتسوية أمورهم وتصفية أموالهم ، وحرمان هؤلاء من التمتع بالجنسية التركية التي زالت عنهم ، ونقل ممتلكات الخلافة والخلفاء إلى الأمة ، ونقل مفروشات قصور الخلافة ، ورياشها ، ولوحاتها ، وتحفها ، وألطافها إلى ملكية الأمة . . .

* * *

وفي اليوم المحدود لإبعاد الخليفة وأبناء الخلفاء عن بلدهم كانت وسائل النقل تزدحم بهؤلاء الذين تعرف في وجوههم نضرة النعيم ، لكي يخرجوا من الأرض التي أنبتهم ، حيث يستقبلهم التشييت وجمالة المصير في بلاد غريبة عنهم .
ومنذ ذلك اليوم لم يعد آل عثمان ذكر ولا خبر إلا في أسفار التاريخ .

ملك يتهم بالخيانة

فيقطع رأسه

كانت التهمة التي وجهها الشعب إلى الملك «شارل الأول» ملك لإنجلترا هي تهمة الخيانة . . . وكان الحكم الذي صدر عليه لهذه التهمة الخطيرة هو الإعدام . . .

ولم يستطع شارل أن يدفع عن نفسه ، على الرغم من المحاولات العديدة التي بذلها ، فقد كان إعداد أمره محتوماً لا مفر منه ، وقد سبقت بذلك كلمة الشعب التي تجمعت في قرار الثوار ، وعلى رأسهم « أوليفر كرومويل » .

ولقد كان في مكتبة شارل الأول أن يكون ملكاً محبوباً ، وخاصة بعد غطرسة « جيمس الأول » الذي كان يؤمن بنظرية الحق الإلهي المقدس للملوك . . . فليس لأحد من الشعب حق معارضة الملك أو مناقشته الحساب عما يصدره من أعمال ... ولكن الولد سر أبيه . . . فقد نشأ شارل الأول ورأيه كراى أبيه

من ناحية الحق المقدس للملوك .

وبدأ الصراع بين الملك شارل والشعب منذ أن نوقشت ميزانية الدولة في البرلمان ، فكان الملك يرى أن من حقه تقرير الضرائب التي يراها بغير رجوع إلى البرلمان أو موافقة منه ، بينما البرلمان يرى أنه صاحب الحق الأول في تقرير الضرائب ، وأنه لا يجوز للملك أن يقرر ضريبة من غير موافقته .

وتجاوز هذا الصدام إلى مسألة أخرى تتصل بالحرية الدينية التي يكره الناس أن تمسها القيود... فقد تزوج شارل بالأميرة الفرنسية « هنريتا ماري » أخت لويس الثالث عشر ملك فرنسا ، وتعاهد الملكان على أن يكون ملك فرنسا حامياً للكاتوليك في إنجلترا... وهنا دخلت الريبة في قلوب الإنجليز وظنوا أن ملكهم شارل الأول يخفي في نفسه شيئاً ، ويضممر سوءاً للمذهب البروتستانتي .

رأخذ شارل الأول بتحدى البرلمان ، ويعرض به في كل مناسبة ، ولا يرى في أعضائه الذين اختارهم الأمة غير جماعة من الثرثارين المتشدين ، الذين يعطلون بثرثرتهم دولا العمل ، ويقسمون المشاكل والصعوبات ، ويخلقون العوائق خلقاً بما

يلابسون به المسائل من تصعيب وتعقيد . . .

- وقد أثار تنذر الملك بالبرلمان ورجاله حفيظتهم ، فوقفوا حائلا بينه وبين رغباته التي يرون من حقهم أن يقرروها نواباً عن الشعب الذى انتخبهم ... فلما طالبهم يوما ببعض الاعتمادات المالية التي كان في حاجة إليها رفضوا أن يجيبوا مطلبه . . . فقابل هذا الرفض منهم بجل مجلس العموم .

وظن الملك أن حل المجلس قد يكون درساً قاسياً لمن تأتى بهم الانتخابات المقبلة في المجلس الجديد . . . ولكن الأعضاء الجدد لم يكونوا ألين عوداً ولا أسهل عريكة من النواب السابقين ، فاصطدموا برغبات الملك ، ورفضوا الاعتمادات المالية التي طلبها منهم ، وأبانوا له أنهم إنما يفعلون ذلك تمسكاً بحق يؤمنون أنهم أصحابه نيابة عن الأمة التي انتخبتهم ، وأن المسألة لا تعدو أن تكون إيماناً بمبدأ ودفاعاً عن فكرة . . . وأن ذلك الإيمان بحقوقهم الشرعية لا يتعارض مع ولائهم للعرش . . . فإن من الخير أن يعرف كل ذى حق حدود حقه فلا يتجاوزه ، ولا يتعداه يحال من الأحوال ، وإلا كان في ذلك طغيان من جانب على جانب . . .

ولم تعجب هذه النعمة الجريئة الواعية كبرياء الملك الشاب ،
ولم ترض نفسه التي ورثت الغطرسة والعجرفة وحب الحكم
المطلق عن أبيه « جايمس الأول » ... فذهب الملك المغرور
بنفسه إلى مجلس العموم وألقى على النواب خطاباً خرج فيه عن
التقاليد الرصينة النبيلة ... ونسى وهو يؤيد حقه في الحكم المطلق
أنه استفز النواب بعبارات شديدة ، تحمل التهديد والسخرية
والغرور ، وتدل في مجموعها على الحمق الذي قاده بعد ذلك
إلى سوء المصير ...

لقد خاطب الملك نواب الأمة قائلاً : « إنكم حين
حاولتم أن تمنحوا أنفسكم من الحقوق ما ليس لكم قد أسأتم
فهم المهمة التي تقومون بها ، وليس من العقل أنكم ستدركون
هذه الحقوق المزعومة في يوم من الأيام ... وحين تعللون
أنفسكم بإدراك ما تزعمون من حقوق فإنما تعللونها بالسراب الذي
يخسبه الظلماء ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ... ومن
تكونون أنتم ، وما يكون مجلسكم الذي هو قبسة من النور الذي أنا
مبعثه ؟! وما تكون السلطة التي تزعمون أنها لكم وما هي إلا منحة

من السلطة التي أنا مصدرها . . . والتي حولتها الله بحق السيادة عليكم . فكيف تقلبون الأوضاع رأساً على عقب ؟ وكيف تجرعون على أن تمسخوا الحق ، فتحيلوا الأخذ عطاء ؟ وتجعلوا الكثافة ضياء ؟

ولقد كان مسلككم معي منذ البداية مما لا يليق أن يوجه إلى ملك يستمد سلطانه من الله لا منكم . . . فجئت الآن أنذر ، وغداً لن تأخذنى فى واحد منكم شفقة ولا رحمة .

وأود قبل أن أبرح المنبر أن أقول لكم إن هذا المجلس النيابى وكل مجلس يأتى بعده هو من صنع يدى ومحض مشيئى . . . فإذا شئت أبقيتها ، وإذا شئت حللتها . . . واعلموا أن بقاءها وزوالها مرتبط بما يبدو لى من نتائج عملها . . . » .

وأراد شارل أن يبرهن على صدق تهديده ووعيده ، وأن يثبت أن البرلمان ما هى إلا لعبة فى يديه ، فحل المجلس مرة ثانية . . . وثالثة ، وألقى بالظاهرين المناوئين من أعضائه فى غيابات السجون ، ونكل بالآخرين أشد تنكيل .

وذاق شارل حلاوة الحكم المطلق حيث لا معقب لحكمه ، ولا راد لإرادته ، ولا مناقش لتصرفاته ، فحكم البلاد حكماً

استبدادياً لمدة أحد عشر عاماً . . . لا ينازعه فيها سلطان ،
ولا يحاسبه فيها برلمان . . .

وفي خلال هذه الفترة الظالمة المظلمة أطلق الملك الاستبدادى
لنفسه العنان . . . فأنقل كاهل الشعب بالضرائب ، واستخرج
الأموال من خزائن الأغنياء وجيوب الناس بألوان من الحيل ،
وصنوف من المخادعات . . . وكانت كلها تنفق على شهواته ،
وتصرف على مخصصات عرشه ، وأباح لنفسه أن يجيز من
التشريعات الاستبدادية ما تصادر به الأموال ، ويعتقل به
الأفراد بغير حساب ؛ حتى لم يعد الفرد يأمن على نفسه
السجن ، أو على ماله المصادرة .

وجد الملك فى القوانين الاستثنائية التى أصدرها وسيلة
إلى إثارة الرعب فى النفوس ، وإذاعة الهلع بين الناس ،
وتسليط سيف الإرهاب فوق الرقاب ، وظن وهو منتشر بنجر
هذه الكبرياء الزائفة الزائلة أنه يستطيع أن يخمّد الأنفاس ،
أو يلجم الألسنة ، أو يكسر شوكة الساخطين عليه .

واضطرب الملك سنة ١٦٤٠ أمام سخط الأمة وحقنها ،
والأزمة المالية التى أحاطت به ، والعواصف السياسية التى

اكتشفته من كل جانب ، والحرب التي قامت بينه وبين اسكتلاندة — اضطر الملك أمام ذلك كله أن ينزل لنواب الأمة في البرلمان الحديد عن بعض حقوقه وامتيازاته ، وكانت الأمة ساخطة أشد السخط على وزيره « سترافورد » الذي كان يعده الشعب أصل الداء ومصدر البلاء ، فوقع الملك بيده أمر شكاكته وصادق على الحكم بإعدامه فسكنت ثائرة الشعب بعض السكون ، وهذأت العواصف التي كانت تغتلي بالسخط على الوزير الفاسد المفسد ، واستمر الهدوء يعاود النفوس حتى سنة ١٦٤٢ .

ولم يكن هذا الهدوء إلا هدنة على دخن . . . فقد عاد الملك الاستبدادى إلى قديم سيرته ، ورجع إلى طغيانه بأشد مما كان عليه قبل مقتل وزيره ، وأخذ يناوئ البرلمان مناوأة حملت النواب على أن يكتبوا إليه يازمونه الحدود التي رسموها له أو رسمها هو لنفسه منذ عامين ويذكرونه بالوعود التي بذلها ، ويؤاخذونه على السقطات التي ارتكبها . . . فغضب الملك من هذه اللهجة التي لم يتعودها من قبل ، ورأى فيها إهانة لذاته التي لا تمس . . . وأضمر للنواب شراً ؛ ودبر

خطة للقبض على خمسة من زعماء المعارضة ، ولكن أمرها اكتشف ، فلم يذهب النواب إلى المجلس في الجلسة المتفق على تنفيذ الخطة فيها . . .

وأفضت سياسة شارل العشوم إلى نشوب الحرب الأهلية في إنجلترا ، وإلى قيام ثورة جاحمة بزعامة كرمويل ، فلم يعد في قوس الصبر منزع عند الثوار ، واضطر الجيش نفسه أن يتدخل ليضع للأمور حداً يحسن الوقوف عنده ، بدلا من هذه الفوضى التي طال أمدها .

وصحا الملك العشوم النجوم ذات يوم من نومه على صوت يقرع الباب . . . فإذا أربعة من ضباط الجيش وخلفهم بضعة منهم يقتحمون الباب على الملك من غير تحية ، ويخاطبه كبيرهم « الكولونيل كوبت » قائلا :

البس ثيابك وتعال معنا فنحن مكلفون باقتيادك . . .

وسألهم الملك في دهشة : من الذى كلفكم ؟ فأجابه الضابط : الجيش هو الذى كلفنا القيام بهذه المهمة . . . وسبق الملك في حراسة شديدة إلى قلعة « هرست » القائمة على صخرة عالية ناتئة في البحر ، وبقي الملك في هذا القصر الكتيب المظلم ينتظر مصيره الذى كتبه له الأقدار .

واستصدر النائب الزعيم كروويل قراراً من مجلس النواب
بمحاكمة الملك شارل أمام البرلمان بتهمة الخيانة العظمى للوطن ...
ولما آنس كروويل من بعض النواب ترددوا في قرار المحاكمة خشية
أن يثور الشعب لفكرة محاكمة ملكه قال لهم : « لا تخشوا
شيئاً ! فلن يأتى أحد بحركة ، ولن تهمس شفقة باعتراض ...
وسنحز رأس الملك ، والتاج على مفرقه ، والناس صموت » .

~ ~ ~

وفعلا أعدم الملك شارل الأول والناس صموت ...
ولم يرتفع صوت إلا صوت مساعد الجلاد الذى أخذ الرأس
المقطوع وهو يقطر دماً وصاح : هذا رأس ملك خان وطنه ...

إمبراطورة

تؤثر الموت على الفرار من الثوار

حقاً إن الشجاعة التي أبدتها الإمبراطورة « أوجيني » حين الثورة عليها وعلى زوجها « نابليون الثالث » كانت مضرب الأمثال.. لقد كان الثوار يحيطون بقصر « التويلرى » وهم في هياج شديد لأنباء الهزيمة التي منيت بها فرنسا في حربها مع ألمانيا سنة ١٨٧٠ .

وكانت أنباء القتال ترد إلى باريس أولاً بأول ، ولم تكن تتحمل الأخبار في جعبتها ما يسر الفرنسيين أو يطمئنهم على معسكر جيوشهم المحاربة في جبهة الألزاس واللورين . وقد كانت الأيام الأولى من شهر سبتمبر سنة ١٨٧٠ حلي بكل عجيب من الأخبار ، فكل يوم يحمل نبأ عن تقهقر ، وكل ساعة تتحمل خبراً عن ارتداد... إلى أن كانت النكبة الكبرى

فى معركة « سيدان » التى وقع فيها الإمبراطور نابليون الثالث
أسيراً فى قبضة الأعداء .

والجماهير لا ترحم فى غضبها وفى انفعالها ، فقد نسيت
لنابليون الثالث كل حسنة ، وعزت إليه نكبة الوطن الفرنسى ،
واتهمته بالخبث والخور وسوء القيادة . . . ولو أنه انتصر للقبته
بالبطل المغوار ، وخلعت عليه أكاليل الغار . وكذلك الناس
دائماً ، من يلق خيراً فأنهم يقولون له ما يشتهى ، ويسمعونه من
المدح والثناء ما يريد وفوق ما يريد ؛ أما المخطئ فلامه الهبل . . .
وقد أصاب الإمبراطورة الفاتنة الجميلة « أوجينى » شواظ
من نار الغضب والسخط لا يقل عما أصاب زوجها . . . فقد
ألقى عليها الرأى العام الفرنسى مشاركة التبعة فى هزيمة فرنسا . . .
واتهمها بسوء السياسة ، وفساد الحاشية ، وقلة المبالاة بمصير
فرنسا ، لأنها ملكة غريبة عن البلاد ، لم تنبها أرض فرنسا ،
ولا أظلتها سماؤها ، ولا اغتذت بعناصرها ، ولا صبغت بشرتها
ولا كيانها من ثراها . . . وإنما هى أسبانية ولدت فى غرناطة ،
وقضت صباها فى مدريد . . .

وامتلأت شوارع باريس العديدة ، وساحاتها الرحبة ،

١٠٣

وطرقاتها المنتشرة هنا وهناك بالجماهير الحاشدة ، وقد ضغطها الزحام ضغطاً ، وهى تنصب فى تكتلها واندفاعها كأمواج بحر متلاطم ، وقد ارتفع الصياح من كل حنجرة ، وعلا الهتاف من كل شفة ، بسقوط الإمبراطور الخائر الجبان ، وسقوط الإمبراطورة الأسبانية الخبيثة . . .

وكان الهتاف المدوى يبلغ عنان السماء فتهتز له جنبات الأثير ، كأنما هناك زلزلة فى الفضاء ... ولكن «أوجينى» لم تهتز لهذه الحمى التى تقذفها أفواه ثائرة ، فكانت هادئة البال رابطة الجأش ، كأن هذه الصيحات ليست نذيراً لها بأحوال عواصف شداد . واعتقدت أنها بهدوئها وضبط نفسها ستتغلب حتماً على العاصفة ، وستجتاز هذه الأزمة الطاحنة بسلام . . .

ومرت أيام ونار الغضب والسخط تسرى بين الجماهير كما تسرى النار فعلاً فى المسيم ، وزاد الهياج إلى حد خشى معه العقلاء أن ينقلب إلى جحيم يأتى على مدينة العلم والنور ؛ ويأتى على الاستقرار الذى تحتاج إليه فرنسا وهى فى أعقاب الهزيمة التى حاقت بها فى معركة « سيدان » .

وكانت الإمبراطورة أوجينى قائمة مقام زوجها فى أثناء

حربه ضد الألمان ، وألقيت عليها أعماله كلها ، حتى رئاسة مجلس الوزراء .

وانعقد المجلس برئاسة الإمبراطورة في قصر التويلري لاتخاذ التدابير لمواجهة الحالة التي نجمت عن هزيمة فرنسا ؛ ولم تكذ أوجيني تخرج من المجلس - بعد انفضاضه - حتى جاء إليها وفد من أعضاء مجلس النواب يشرحون لها الحالة في المدينة وفي سائر أنحاء فرنسا بالتفصيل ، ويبينون لها الأخطار التي تستهدف لها فرنسا لو استمر الحال على هذا المنوال ، وينصحونها أو يدعونها إلى التزول عن العرش ، تهدئة للخواطر الثائرة ، وتسكيناً للنفوس المهتاجة ، وحقنا للدماء التي ستحمل الإمبراطورة وزر سفكها فيما لو أصرت على البقاء

ورفضت أوجيني النصيحة التي أسداها إليها النواب ، معلنة أنها لا تستطيع أن تبرح مكانها في القصر مهما أحاط بها من أهوال ، وأنها لا تتمسك بالعرش حباً فيه ولا احتفاظاً لزوجها به . . . ولكنها تسلمت أمانة الملك من زوجها الأسير في يد الألمان ، فكيف تتخلى عن الأمانة التي ألقيت إليها ؟ وكيف تعتزل الحكم . يمثل هذه السهولة التي يقترحها عليها

١٠٥

النواب ؟ إنها باقية على عرش فرنسا حتى يقضى الله أمره ؛
فأذا رأت الأمة - ممثلة في نوابها - أن في بقائها أو بقاء النظام
الإمبراطورى ما لا يحقق أهداف الوطن أو يضمن مصالحه في
هذه الظروف الحرجة ، فأنها ان تستطيع حينئذ إلا أن تخضع
لقرار الأمة بعزلها أو بإلغاء نظام الحكم كله . . . أما أن تنزل
عن العرش طائعة ختارة فذلك ما لا سبيل إليه . . .

ذلك كان القرار الذى اتخذته الإمبراطورة الفاتنة ، وصممت
عليه أمام النواب الذين جاءوا يطالبونها بالتنازل .
وبدأت الأمور تتخرج أمام المرأة المصممة . . . فقد
كانت التقارير ترد إليها كل لحظة بأخبار المظاهرات العنيفة
التي تزلزل البلاد ، وكانت الأنباء تحمل رغبات الشعب
وتصميمه على القبض عليها ووضعها رهينة لديه حتى يعتزل
زوجها العرش ويعلم رسمياً هذا الاعتزال .

إن الشعب الثائر الغاضب لهزيمة لم يستطع أن يصل إلى
إمبراطوره وهو في أسره ليرغمه على التنازل ، فاتجه إلى
الإمبراطورة في قصرها ليجعلها رهينة عنده حتى يتم تنازل
الإمبراطور المغضوب عليه .

ولم تمنع صرخات الجماهير واحتشادها حول القصر الإمبراطورى من أن تجتمع «أوجينى» مع المخلصين من الرجال والمستشارين ليعالجوا المسألة علاجاً يحفظ على فرنسا كراتها، ويحفظ على القصر كيانه ، ويحفظ على الملكة الشابة حياتها ... وفى يوم مشمس من أيام سبتمبر كانت الجموع تنساب فى غزارة وتدفق إلى ميدان «الكونكورد» ، وتتجمع حول القصر الإمبراطورى .

وكانت الإمبراطورة داخل القصر وقد أذهلتها الأحداث ، وتمثل لها المصير الذى ستؤول إليه لو أوقعتها الأقدار فى يد الثوار . . . وكان كثير من رجال القصر يروحون ويحيثون فى حيرة من أمرهم لا يدرون ما يصنعون ، وجاء رئيس حراس القصر وهو مقطوع الأنفاس ، يعلن الإمبراطورة أن الثوار قد حطموا بمعاولهم أسوار القصر الخارجية ، وأنهم يحيطون بجدارانه الداخلية إحاطة السوار بالمعصم .

ودنا الخطر على خطوات من سمع أوجينى وبصرها ، وغدا الهتاف المدوى من بعيد جلجلة راعدة فى آذان الإمبراطورة ورجال القصر المحيطين بها ، وخيف على السيدة الأولى فى فرنسا

١٠٧

أن تهجم عليها الجماهير الثائرة وهي في سورة الغضب فتفتك بها فتكاً .

وانفلت زمام الأمر في العاصمة الفرنسية الجميلة ، حتى عجز رجال الشرطة عن أن يضعوا للأمر حداً يقف عنده ، وزادت حماسة الثوار حينما علموا أن الجنرال « تروشيه » حاكم باريس العسكرى قد انضم إليهم ، وأعلن قبوله تأليف حكومة مؤقتة .

واهتم السفراء والوزراء المفوضون ورجال الهيئات السياسية بمتابعة الحوادث والتنبه لها ، حتى يكونوا من الأمور على أهبة... وكان السياسى الداهية « مترینخ » سفيراً للنمسا في باريس في ذلك الوقت ، فهرع مع سفير إيطاليا إلى قصر التويلرى لعله يستطيع أن يسدى إلى الإمبراطورة صنيعاً في هذا الوقت العسير . . .

واقترح عليها السفيران في إلحاح أن تخرج من القصر هاربة ، خشية أن تظفر بها الجماهير الثائرة فتفتك بها . ولم يثن كل ذلك الإمبراطورة العنيدة عن تصميمها على البقاء لتؤدى واجبها المقدس لإمبراطورة ونائبة عن زوجها

الإمبراطور . . . وليكن من الأمر ما يكون . . . فأنها آثرت أن تقع في برائن خطار شقيق على أن تهرب مما كانت تعتقده واجبها المقدس . . .

وألح عايتها الداهية « مترینخ » أن تهرب ، لأن الجماهير في انفعالها لا ترحم ولا تعقل ولا تقدر الأمور . . . ولأن الثائرين وهم في حدة ثورتهم لن يرحموا فيها ضعف المرأة ، وإن يوقروا فيها جلال الملكة والإمبراطورة . . .

وتوسل إليها مدير الأمن العام في فرنسا أن ترحل في غير تسويف لأن الأمر لم يعد يطبق تسويناً . . . فلم تجد المسكينة بداً من أن تدعن لهذه الرغبات التي تلتقي جميعاً في هروبها من القصر . . .

وصافحت الإمبراطورة أصحابها من رجال الحكم وبطانة القصر ، وأعضاء الهيئة السياسية ، ولم تنس أن تعبر لهم عن شكرها لمجاهلتهم إياها ساعة الحنة . . . وتمنت أن تلتقاهم في أسعد الأوقات . . .

وبينما كان سفير إيطاليا يدفعها بلطف نحو الباب ، جذبها مترینخ سفير النمسا جذبة قوية عصبية ، لأنه لم يعد هناك

١٠٩

موضع للإبطاء فى الخروج . . . ومشت أوجينى تجر ساقها فى تناقل وبطء كأنها مئودة بحمل لا طاقة لها به ، وودعت قاعة العرش التى كانت فيها والألم الممض يكاد يقتلها ، وما زالت تنتقل فى أبهاء القصر وطرقاته ومسالكه السرية حتى انتهت إلى المدخل السرى لباب القصر ، فتسللت منه إلى الخارج وهى معتمدة على ذراع وصيفتها .

ولم يشأ « مترنيخ » أن يتركها فى شوارع باريس خشية أن تقع عليها العيون المتربصة ، فاستدعى لها مركبة مقفلة وودعها فى حذر وحيطه ، مخافة أن يعرفها أحد من هذه الجموع التى تنتظرها . . .

وسارت المركبة بالإمبراطورة ووصيفتها على غير هدى فى شوارع باريس التى تعج بالثائرين ؛ ولو فطن أحد إليها لفتكوا بها فتكاً ، وقد أذهلت الحيرة أوجينى عن مكان تأوى إليه وتعصم به ، وتذكرت صديقها المستشار « بيسون » . . . فلما ذهبت إلى بيته وجدته خالياً من كل نسمة ، فتركت المركبة وسارت فى طريق طويل لا تعرف إلى أين تمضى . . . وكادت تعود ثانية إلى قصر « التويلرى » تلتبس فيه راحة من تعب ،

وسكوناً من اضطراب . . . ولتحكم عليها الأقدار بعد ذلك
بما تشاء ولكن وصيقتها صرفتها عن هذه المجازفة التي
لا تؤمن عواقبها .

وفكرت في أن تلجأ إلى المستر « واشبورن » سفير أمريكا
في فرنسا ، لعلها تجد الأمن والعافية في حمايته . . . أو في
حماية الراية الأمريكية . . . ولكنها خشيت على صديقها الإحراج
والحرج . . . فعدلت عن هذه الفكرة الخاسرة .

ولم تجد في قائمة أصدقائها العديدين غير الدكتور « إيفانس »
الطبيب الأمريكي ، فقصدت إليه بعد مغامرات ومعاكسات
من الأقدار التي يحلو لها أن تعبت بالناس في أمثال هذه
الساعات . . .

ودبر الجميع خطة للهرب من فرنسا ، ولكن أين السبيل
بهم إلى ميناء قريب يبحرون منه إلى حيث تريد لهم
الأقدار ؟

لقد اجتازوا مدن سان جرمان ، وبواسي ، وتريبيل ،
وفو ، ومولان من غير أن يحطوا الرجال في واحدة منها ، فقد
كان الهرب السريع يعجلهم عن التلكؤ في المسير . . . وبلغوا

نغر دوڤيل ، وأخذ الدكتور إيفانس يبحث عن سفينة تهم بالرحيل ، أو عن مركب يستأجرونه وأتاح القدر السعيد لهم أن يجدوا « يختاً » راسياً في الميناء يملكه « السير جون بارجوين » وكان صديقاً للدكتور إيفانس فحملهم بعد ليلة قضوها في النغر الجميل .

وأقلع اليخت فصادفته رياح عاتية ، وأمواج عالية ، كأن الأقدار تضمن على الملكة الهاربة حتى بعبور هادئ ووصل اليخت إلى الشاطئ الإنجليزي ، فأطمأنت أوجيني حينما وضعت قدميها على أرض إنجلترا تلك الأرض التي استقبلت من قبل ملكين فرنسيين طريدين هما لويس الثامن عشر ، وشارل العاشر .

٠

وأمضيت معاهدة الصلح بين فرنسا وألمانيا ، وأطلق سراح الإمبراطور الأسير ولكنه خرج من أسر الأعداء ليجد نفسه رجلاً عادياً بغير تاج ولا عرش فلم يجد غير إنجلترا ليلحق هناك بزوجه الطريدة ولم يستطع الإمبراطور الطريد نابليون الثالث أن يقاوم

آلام الهم والشيخوخة والمرض التي اصطلمحت عليه بعد ضياع ملكه والتجائه إلى إنجلترا، التي كانت أعلى أعداء عمه نابليون بوناپارت . . . فمات من علة جسدية سنة ١٨٧٣ أى بعد ثلاثة أعوام فقط من معركة سيدان . . .

أما الإمبراطورة فقد أرخت لها الأيام في الأجل إرخاء طويلا ، فعاشت حتى سنة ١٩٢٠ . . . وبذلك ظلت أرملة لمدة سبعة وأربعين عاماً . . . وماتت في سن الرابعة والتسعين . . .

وقد شاءت الأقدار أن تعيش أوجيني لثرى انتصار فرنسا في الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ بعد أن شهدت انكسارها في حرب سنة ١٨٧٠ التي أدت إلى سقوطها وسقوط زوجها . . . ولعلها ماتت قريرة العين حين رأت أن القدر انتقم لها وفرنسا من عار حرب السبعين .

وظلت الإمبراطورة العجوز في عزلتها ووحشتها الطويلة في إنجلترا إلى أن قامت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ ، فأستأذنت حكومتها في العودة إلى وطنها فرنسا ، وإلى العاصمة الجميلة التي كانت مقر قصرها الأمبراطورى . فأذنت لها

١١٣

الحكومة ؛ فاستأجرت بيتاً يطل على قصر التويلرى ، وهو
القصر الذى جلست فيه على عرش فرنسا يوماً من الأيام .

وكانت نظراتها العميقة الحاملة إلى القصر تستعيد لها
ذكريات ماضٍ جميل .

مصرع القيصرية في غرفة بالدور الأرضي

لقد شهدت مدينة «كاترينبرج» الروسية أفضع مصارع
الملك منذ أن كان للملك مصارع . . . فقد فاق مقتل القيصر
«نيقولا الثاني» وأسرته أى مشهورة مصوره الخيال ، في مصارع
الرجال .

ولم يكن القيصر نيقولا بأول حاكم قتل ، ولا سلطان
صرع . . . ولن يكون . . . فقد حفلت البشرية بتواريخ
مصارع الحكام ، كما حفلت بسقوط دول وقيام دول ، وسيفل
ذلك الحال حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

وكان القيصر نيقولا يتربع على العرش ويتمتع بالحكم في
دولة يقارب عدد سكانها مائتي مليون نسمة . . . وكانت هذه
الملايين الكادحة تشقى لكى ينحدر الذهب اللامع الرنان إلى
جيوب القياصرة وأبنائهم وأعوانهم . . . فتتخم القصور باللوان
من السعادة والترف والرفاهية التى كانت تضمن بها الأيام على

الشعب المسكين ، حتى في عالم الأحلام . . .
ولقد كان غليان الأفكار في مطالع القرن العشرين نذيراً
بأن عاصفة ستهب على العالم لا تبقى ولا تذر ، وجاءت الحرب
العالمية الأولى سنة ١٩١٤ فأججت النفوس وأعدتها للانفجار
عند أول لمسة للتيار . . .

وبينا كانت الحرب العالمية الأولى مندلعة اللهب في كل
ميدان كانت روسيا تعج بالثورة الكبرى التي قامت فيها في
مارس سنة ١٩١٧ — أى قبل أن تفر سيوف الحرب العالمية في
الأغمار . . . وقامت الثورة على القيصرية لأنها كانت عس
الفساد في البلاد . . . وكانت أناشيد الثوار تنتقل من مدينة
إلى مدينة ، ومن قرية إلى قرية فتربط البلاد كلها بصيحة واحدة
هي النذير لعهد القيصرية بالزوال . . .

وانصببت جموع الثوار كالسيل المنهم على قصر نيقولا
الثاني ، وقر قرارهم على أن ينفي هو وعائلته إلى مدينة
« تويلا » .

وكان القيصر الوديع الواجم مهموماً بأمر زوجته القيصرية
وولى عهده الذي كان غلاماً لم يخط بعد إلى مرحلة الشباب ،

وبناته الأربع اللائي كانت تتراوح أعمارهن بين السادسة عشرة والثانية والعشرين .

وبينما كان القيصر في هموم أسره مع أسرته ، لم تشأ الأقدار أن ترحمه في هذه الساعات الكثيرة أو تتركه ينعم ببعض الراحة والهدوء . . . فقد كان ابنه وولى عهده مريضاً ، وكانت مضايقات الأسر وملابساته القاسية لا تساعد -- وهو يافع -- على احتمال الآلام .

ولم يستطع الغلام المريض أن يرحل مع أسرته من توبلسك إلى «كاترينبرج» ، فبقى وبقى معه ثلاث من أخواته حتى يتم له الشفاء فيلحق بوالده الحزين المتضعف ، وبوالدته التي هدتها الهموم هدأ .

وكان انتقال القيصر وأسرته من بلد إلى بلد يتم في هدوء وعدم اكتراث ، بعد أن كانت الدنيا تقوم وتقعدها انتقلاته . . . وبعد أن كانت القطارات القيصرية الفخمة تطوى بهم الأرض طياً في بقاع وضياع لا يدرك الطرف مداها . . . وكانت الحاشية القليلة العدد التي سمح رجال الثورة بذهابها مع القيصر في أسره حاشية محطمة الآمال ، مهبطة

الجناح . . . وزالت عنها كل مظاهر النفوذ التي كان يتمتع بها المتصلون بالتصوير . . . وأيقنت الحاشية الأخيرة للقيصر الأسير أنها تقضى أياماً معدودات قبل أن تفعل الأيام فعلتها لتقرير مصير القيصر الكسير

ولم تعد مراكب القيصر تهز جنبات الأرض حين يتحرك . . . فقد كان الثوار ينقلونه من مدينة إلى مدينة ، وهو يجر وراءه أسرته الطريفة ، فلا تهتف باسمهم شفة ، ولا يهتم بهم إنسان ، بل كثيراً ما كان الأميرات الناعمات بالأمس يحملن متاعهن من قطار إلى قطار ، ويخضن الأحوال في الأيام المطيرة ، كأنهن بالأمس القريب لم تستبق الرجال إلى خدمتهن والتماس الرضا منهن . . .

وانتهى بالتصوير وأسرته المطاف إلى مدينة كاترينبرج التي شهدت مصرعه ومصرع أسرته ، ولم يكن القيصر يعلم أنه مسوق إلى هذه القرية ليلقى فيها موته تشمئز منها النفوس . . .

وقد اختار رجال الثورة بيتاً للقيصر يتحقق فيه ما يرمون إليه من سجنه وعزله عن العالم الخارجي إلى أن يتقرر مصيره كما تقضى به تعاليم الثوار .

وكانت غرف البيت أقل من أن تأذن لأسرة مالكة بأن
تجد فيها بسطة الراحة، واتساع المغدى والمراح . . . حتى لقد كاد
الجميع يحشرون حشراً في هذا السجن المقصود .

وفي الطبقة العليا من هذا البيت ثلاث غرف . . . وضع
القيصر والقيصرة وولى العهد في واحدة منها ، ووضع البنات
الأربع في غرفة أخرى . ووضعت إحدى الوصيفات في غرفة
ثالثة . . . أما بقية غرف البيت فقد أعدت للحراس الذين
عهد إليهم القيام على حراسة هؤلاء الأشراف الذين كانت تأمر
الدنيا بأمر والدهم المنكود .

وكأنما لوحظ في اختيار هؤلاء الحراس أن يذلوا معانى
العزة والكرامة والوقار في القيصر المعزول . . . وفي أفراد أسرته .
فقد كانوا جفاة غلاظاً في المعاملة وفي القلوب . . . وكانت
بواذر الصرامة والجفاء على وجوههم وفي حركاتهم تكنى لأن
تذل كل جبار ، بله هؤلاء الحور اللأى كن كأمثال اللاؤؤ
المكنون .

وقد قصد الحراس إلى استفزاز القيصر وأسرته بكل شائن
من السلوك مما لا يتفق مع كرامة ، ولا يستقيم مع آداب . . .

١١٩

وما ظنك بحارس عملاق يندفع إلى حجرة الأميرات بلا استئذان ؟
حتى لقد كان هؤلاء الناعمات الناعسات الطرف يتعرضن لدخول
الحراس عليهن في أى وقت من ليل أو نهار . . .
وكان القيصر على جلاله المسلوب يتلطف مع هؤلاء
الغلاظ الشرسي الأخلاق ، فيأذن لهم بالطعام على المائدة مع
أسرته . . . حتى لقد أخرجهم بتواضعه ولطفه ودمائة خلقه ،
كما أخرجتهم القيصرة والأميرات بالصبر الجميل فاستمبدوا
قلوبهم ، وكسروا من حديتهم . وألقى ذلك التصرف النبيل من
الأسرة المالكة شيئاً من الرحمة والعطف في قلوب هؤلاء القساة
الغلاظ الأكباد .

~ ~ ~

وكانت السلطة في مدينة كاترينبرج في يد مجلس إقليم
أورال ، وهو مكون من ثلاثين عضواً ، وقد لاحظ المجلس
بعد استبدال الحراس القدماء بأن عطف الحراس الجدد على
القيصر وأسرته لا يمكن أن يفسر إلا بالضعف والاستخذاء .
واتصل مجلس أورال بمجلس موسكو لاتخاذ قرار في
هذا الموضوع الذي يتوقف عليه مصير القيصرية في البلاد . . .

فقرر المجلس أن يعين « يورفسكى » رئيساً للحراسة على القيصر وأن يختار هو لمعاونته في مهمته الصارمة من يشاء من الحراس . . .

وكان يورفسكى يهودياً من المتعصبين المتطرفين ضد القيصر ، وكانت فظاظته وغلظته السبب في وقوع الاختيار عليه ، فاختار عشرة من أسرى النسويين الألمان يعاونوه في الحراسة ، ولم يكونوا أرحم منه قلباً ، ولا أكرم نفساً ، فقد أغلظ الزمان أكبادهم إلى حد جعل أيام القيصر وأسرته في بيت كاترينبرج جحيماً لا يطاق .

وهنا قرر المجلس التتفيأى للمدينة كاترينبرج وعلى رأسه يورفسكى أن تنهى حياة القيصر وأسرته في أمد قريب .

وفي مساء الأحد ١٤ يوليو دخل كاهن إلى البيت الذي يقيم فيه القيصر وأسرته لإقامة بعض الصلوات والطقوس الدينية . وكان غرض يورفسكى من ذلك أن يبرر موقفه أمام الروس المتدينين في ذلك الوقت ، حتى لا يقولوا إن قيصرهم قد قتل من غير أن يزود بخدمة دينية . . .

وفي الليلة التالية كان يورفسكى قد اجتلب سرّاً اثني عشر

١٢١

مسلسلاً من محلة الحرس بالمدينة ، وأسرّ إلى من جلبها له بأنه قد حكم على الأسرة القيصريّة بالإعدام ، وأن إعدامها سيتم في تلك الليلة . . .

وفي الساعة الأولى بعد منتصف الليل دخل يورفسكى غرفة القيصر وأيقظه وقال له : إن جنود الأعداء ستصل إلى المدينة قبيل الفجر . . . وقد يقع الصدام بينها وبين خصومها في الشوارع ، فخير لك ولأسرتك أن تنزلوا إلى الطبقة الأرضية من المنزل ، حتى تكونوا بمأمن من طلقات الرصاص ، الذى يحتمل أن ينفذ من منافذ البيت وشبابيكه . . .

وتساءل القيصر إذا كان من الأفضل أن يأخذوا معهم إلى « بدروم » المنزل بعض متاعهم ، فأجاب يورفسكى بأن الأليق أن يأخذوا الوسائل فقط يضعونها عليها رؤوسهم إذا ما استسلموا إلى بعض الكرى .

ودخل يورفسكى غرفة الأميرات وأبلغهن ما أبلغ به أباهن ، واستعد الجميع للنزول إلى الطبقة الأرضية من المنزل ، إيثاراً للخلاص من مناوشات قد تقع في شوارع المدينة كما أفهمهم الجلاد يورفسكى . . . ولم يكونوا يعلمون أنهم سائرون للملاقة

قضايتهم المحتوم . . .

ونزل القيصر وزوجته وأولاده وبطانته وطبيبته الدكتور بوتكن ، وكان عددهم جميعاً أحد عشر نفساً ، وقد أعياهم النحول الذى أصابهم فى مكان أسرهم البئيس ، حتى أن بزة القيصر العسكرية ، وثيابه الحربية ، وبنطلونه الأزرق الذى يشبه لباس الفرسان لم تكن لتخفى شيئاً من الشحوب البادى على وجهه . . . نزلوا جميعاً إلى الدور الأرضى فى تلك الساعة الباكرة من الصباح ، وكان الظلام الدامس يحلل سلم « البدروم » ويسود ذلك الطبقة الأسفل الشبيه بغيابات السجون . . . وأضاء أحد الحراس مصباحاً ضئيلاً لينير السلم الموحش المظلم المفضى إلى أسفل الدار . . . وكان القيصر يخطو فى وقار وذهول ، وتتبعه زوجته المرتجفة ، أما ولى العهد فقد كان ثقيل الخطى لأن المرض المصاب به كان نوعاً من الكساح .

وكانت الأميرة تاتيانا — وهى ثانية الأميرات الأربع -- تمشى شاردة اللب ، وعلى وجهها مسحة من جمال أذبلته الأيام ، ولعلها كانت ساخطة على الأقدار التى جلبت بها إلى هذه النهاية الكئيبة ، بعد أن كانت الأقدار نفسها تعد لها تاجاً آخر

١٢٣

بخطبتها إلى ولي عهد إنجلترا . . .

وكان طبائخ الأسرة المالكة آخر من نزل السلم إلى «البدر»
فقد كان نزول الجميع إلى هذه الهاوية مطابقاً لمراسم القصور
وقواعد « البروتوكول » . . .

واجتمع أعضاء الأسرة القيصرية مع طائفة من الجلادين
والرماة العتاة في غرفة واحدة في قرارة المنزل . . . وكان كل
جلاد مزوداً بالبنادق والمسدسات ، وقيل للمساكين : لا تجزعوا
فإن سيارات ستحضر لنقلكم من هنا المكان ، ولكنها كانت
إحدى كذبات « يورفسكى » البلقاء المشهورة . . .

ولم يكن في الغرفة كرسي واحد أو قطعة من أثاث غير
الموقد المستند إلى الحائط ، فطلب القيصر بعض الكراسي لأنه
كان يؤهل على كتفه ولي عهده الكسيح . . .

وجاءت الكراسي . . . ولم تكن كافية لأحد عشر شخصاً
يتوقعون مصيرهم . فاستند بعض الأميرات إلى الحائط برعوس قد
أماها المم ، والنصب ، والذعر الشديد . . .

وهنا أخرج يورفسكى ورقة من جيبه وتلاها في سرعة
واضطراب . وكانت أمراً من حكومة الثوار بإعدام القيصر

يقولون الثاني وأفراد أسرته .

وأراد القيصر أن يعترض على الحكم بقتل زوجته وأولاده ،
فأنهم لا ذنب لهم ، وخشى يورفسكى أن يؤثر كلامه في الجنود
المكلفين إعدامهم فتعمد الرحمة بهم عن تنفيذ عملهم . . وبدأ
هو بإطلاق الرصاص على القيصر ، فأصاب منه مقتلًا في
مخه ، وخر على الأرض لا يبالي حراكاً . .

وهنا بدأ الجنود يطلقون الرصاص في شهوة من الجنود
على أفراد الأسرة الناعسة . . واختلط صراخ الصارخين بدوى
الرصاص المنهمر في غرفة محدودة الجهات . .

ولم يكتف الجنود بالرصاص ، ولكنهم استعملوا حراهم في
شج الرعوس وفضخ الجماجم .

وكانما انتزعت الرحمة من الجنود انتزاعاً ، فراحوا في ثورة
من الغضب والجنون يطربون رؤية الدم القاني المتدفق

وفي وسط هذه الحجرة البشعة اضطربت المصابيح البترولية
في أيدي حاملها من الحراس فسقطت على أرض المكان متدبة
تنذر بحريق هائل ، وتكاثف الدخان في الطبقة السفلى من
البيت الذي كان يدخر لأبناء القياصرة هذا المصير المشؤم .

١٢٥

وجاءت مركبات لتحمل جثث القتلى وأشلاءهم إلى مكان
بعيد خارج المدينة ، فألقاها أعوان يورفسكى فى غابة
كثيفة ، ومنعوا الناس أن يصلوا إليها ، وسدوا الطرق المؤدية لها .
وكأنما ضمن يورفسكى على جثث القيصر وأسرته أن
يحتويها قبر ، فأمر بأحراقها بعد أن وضعوها فى أكوام من الحطب ،
وصبوا عليها كميات هائلة من البترول وحامض الكبريتيك .
وأثار الهواء ذرات هذه الأجسام التى تمتعت بلذة
الحكيم ونشوة السلطان . . .

وذاب عرش القياصرة بما يحمله من الجواهر وكريم
الأحجار ، كما ذابت أجسام القيصر وأسرته فى لفتح النار .
والملك لله الواحد القهار

إمبراطور يجمل وزر حرب طحون

تكاد تجمع أكثر مصادر التاريخ المعاصر أن الإمبراطور غليوم الثانى إمبراطور المانيا السابق وخاتمة العصر الملكى فيها يحمل إثم الحرب العالمية الأولى، ويعد مسئولا عن الضحايا الذين استشهدوا فيها ، وأن كل قطرة دم سفكت فى تلك المجزرة العالمية البشعة تصرخ بأن ذنبها يقع على كاهل الإمبراطور العنيد . . .

ولقد كان فى النية - بعد أن تنازل غليوم الثانى عن عرشه فى ٢٨ نوفمبر سنة ١٩١٨ - أن يحاكم الإمبراطور أمام محكمة دولية باعتباره مجرم حرب ، ومسئولا عن المحنة الكبرى التى هزت كيان العالم منذ أن اندلعت شرارة الحرب الأولى فى سنة ١٩١٤ . ولم يخف الحلفاء نيتهم هذه ، بل عالنوا بها ووضعوها فى شروط الصلح التى وافقت عليها ألمانيا المغلوبة . وكثيراً ما حاول الإمبراطور المحارب أن ينفى عن نفسه تهمة

١٢٧

احتمال المسؤولية في حرب سنة ١٩١٤ ، وكثيراً ما ألقى التهم على الحلفاء الذين استفزوه بسلسلة من تصرفاتهم التي لم يكن محييص من أن تحمله على إعلان الحرب حملاً . . . ولكن الحلفاء يردون عليه بأنه في الساعة التي كان يتشدد فيها بالسلم ، ويثرثر في أحاديثه المموهة بضرورة إشاعة السلام في عالم يرقص على بركان - في تلك الساعة بالذات كان يعمل الأعمال التي أدت إلى الحرب . . . حتى انكشف ما في قرارة نفسه ، وظهر في خطبه المثيرة المهيجة التي كان يقذف بها هنا وهناك . . . وعلى حين وجهت الاتهامات إلى الإمبراطور غليوم الثاني بتحميله لإصر الفظائع التي ارتكبت في الحرب العالمية الأولى ، فإن الحلفاء قد أنصفوا الشعب الألماني نفسه ، فبرأوه من حمل التبعة الخطيرة التي ألقيت على ضمير عاهله . . . لأن نظام القيصرية الألمانية وروحها كانت تجعل الإمبراطور هو المسئول الوحيد عن كل شيء في بلاده ، فهو حاكم مطلق لا معقب لحكمه ، وهو في نظر الشعب حارسه وحاميّه ، فليس للشعب الخيرة في أمر نفسه ، وليس عليه إلا الطاعة لسيده . . .

وهذه العقلية التي سرت في دماء الشعب الألماني هي امتداد للفكرة القديمة فكرة القرون الوسطى ، التي كانت تجعل الملك فوق كل اعتبار ، وتضفي على حقه القداسة والتعزیه لأنه ظل الله في الأرض . . .

وفي ظل هذه العقلية التقليدية البالية جرت ألمانيا إلى الحرب الأولى وانجرت إليها ، ولم يكن لها بد من أن تجيب نداء عاهلها حين دعا إلى قتال الحلفاء . . .

وكثيراً ما عقدت الموازنات بين موقف نابليون بونابرت ، وموقف غليوم الثاني ، فإن نابليون إمبراطور فرنسا لم يحاكم حقاً ، ولكن أجمع الرأي العالمي المتألب ضده على أنه كان مجرمًا يستحق العقاب . ومهما يكن من أمر فهل كان نفي نابليون إلى جزيرة «سانت هيلين» جزاء يتكافأ مع عظم الجرم الذي ارتكبه في نظر خصومه وأعدائه ؟

ويرى بعض المؤرخين الإنجليز أن القسوة الشديدة في معاملة نابليون ، وأن إبعاده إلى جزيرة مهجورة نائية في المحيط ، وأن شدة الحراسة له وتشديد الرقابة عليه ، ومتابعة خطواته القصيرة المحدودة في منفاه — كل ذلك يقابله لطف

وبجاملة كثيرة فى معاملة الإمبراطور الألماني غليوم الثانى وهو فى معزلة بمدينة « دورن » بهولندة . ويعلل هذا النفر من الكتاب ذلك بأن غليوم الثانى لم يكن يخشى منه أن يعود إلى العرش ثانية بعد ما أنزل منه أو تنازل عنه . . . فقد كان الشعب الألماني عقب الحرب والهزيمة التى حلت به ، ينساق انسياقاً نحو الحكم الجمهورى ليتخلص من استبداد الحكم المطلق . . . كما أن غليوم الثانى كان له من سلسلة النسب الشريف ، والأبوة العظام ما يجعل له مركزاً خاصاً يختلف عن مركز نابليون . . . ألم يكن غليوم سليل بيت « هوهنزرن » العريق؟ ألم يكن من أجداده فردريك وليم ، وفردريك الثانى ، وفردريك الكبير الذى ترك أنصع الصفحات فى تاريخ الملوك؟ ويقول المنادون باتهام غليوم الثانى وتحميله مسؤولية الحرب بأنه كان يعمل لها منذ زمن طويل ، وكان حزب الحرب الذى غذى الإمبراطور أفكاره وآراءه يعتقد أن ألمانيا تستطيع أن تقف وحدها فى حرب ضد أوروبا كلها . . . وكان فى استطاعتهم أن يعجلوا قيام الحرب قبل سنة ١٩١٤ لولا أنهم لم يشاءوا أن يعرضوا ألمانيا للحرب من غير أن تقف الخمسا

١٣٠

بجانها . . . وما أسرع ما وافقت ألمانيا — قبل الحرب — على ضم ولايتي البوسنة والهرسك إلى النمسا ، لتكسب بذلك عواطف النمسيين وشعورهم ، ولتضمن مخالفة النمسا لها فيما إذا اشتعلت نار الحرب التي كانت تتوقعها . . .

وقد شاءت الحدود العوائق للإنسانية المتألمة أن يكون مقتل الأرشيدوق « فرنسيس فردناند » ولي عهد النمسا ، ومقتل الأميرة زوجته في ٢٨ يونيو سنة ١٩١٤ سبباً لإعلان الحرب .

ويؤكد بعض المؤرخين أنه لو فرض أن النمسا تنازلت عن القصاص من الصرب لقتل ولي عهدا ، فإن الأباطور الألماني نفسه لم يكن ليحجم عن القصاص من القتلة ، لا حباً في إشعال جذوة الحرب التي كان يتحرق إليها وحسب ، ولكن دفاعاً عن حق كان يرى أنه هو الولي له والمطالب به . . . فقد كان يعتقد أنه يمثل النظام الملكي المقدس في العالم كله ، وأنه هو حامى الملكية ، كما كانت تعلن أمريكا -- في ذلك الزمان -- أنها حامية الديمقراطية . . .

ولهذا اعتقد غليوم الثاني — وهو في إطار هذه الفكرة الغالبة عليه — أن كل طعنة توجه إلى عرش من العروش فإنها في الحق

موجهة إلى شخصه . . .

والحق أن غليوم الثانى كان يمثل فكرة الملوك الاستبداديين
أصداق تمثيل . . . وكان يحرص على تجسيم هذه الفكرة
وتهويلها . . . فقد كان يتحدث مرة مع طبيب أسنانه الخاص
الدكتور « آرثر دايفز » الأمريكى عقب انتخاب « ولسن » رئيساً
للولايات المتحدة سنة ١٩١٢ ، فقال لطبيبه فى لهجة ساخرة :
وماذا عسى أمريكا أن تصنع وعلى رأسها أستاذ ؟ اعلم
يا دايفز أن بلادكم لن تصير عظيمة فعلا حتى ينقلب النظام
الجمهورى فيها إلى نظام ملكى . . .

وتشاء الأقدار الساخرة أن لا يمر من الزمان أمد طويل
حتى تصبح ألمانيا جمهورية فى سنة ١٩١٨ ، وحتى يذهب
النظام الملكى أو الإمبراطورى منها إلى غير عودة ،
وأن غليوم الثانى نفسه وهو المتمشيت بالملكىة ، المؤمن بها ،
الممثل لها ينقلب بين عشية وضحاها إلى فرد عادى ، ويلتفت
حولہ ، فإذا التاج يهوى من فوق رأسه الذى كانت تملؤه آراء
عتيقة ، وإذا السلطة المطلقة تضيع من يديه ، فلا أمر ولا نهي ،
ولا قوة ولا سلطان ، ولا إرادات إمبراطورية سامية تهتر لها

١٣٢

الأرض ، وقد تهتر لها الأفلاك . . . ١

ولكن الإمبراطور الطريد في نوفمبر سنة ١٩١٨ ظل
يتشبث وهو في منزله الهادئ بهولنדה بأذيال مجد قديم ،
فقد أمر خدمه وهو مجرد من جلالة الملك وأبيهته أن يقوموا
بالمراسم التي كانوا يقومون بها والتاج على مفترقه في « بوتسدام » .
وبقيت التشريفات على حالها كأنه لا يزال قابضاً
على الصولجان ، وفي يده السلطان . . . فلا يزوره زائر في
مهجره الجميل الأنيق إلا بعد أن يلتمس الإذن بوساطة كبير
أمنائه . . .

وإذا دعا أحداً من العظماء أو العلماء أو صحافيي العالم
الذين كانوا يتزلون بمدينة « دورن » فلا بد أن تكون الدعوة
مكتوبة وموقعاً عليها من رئيس التشريفات باسم « صاحب
الجلالة الإمبراطورية » . . . الزائلة . . . ولا بد لزائر الإمبراطور
الطريد أن يمر على مكتب رئيس القصر لكي يعرف القواعد
التقليدية للمثول في حضرة الإمبراطور الطريد وتحيته . . .

وقد أبقى غليوم الثاني في معزله بهولنדה حفنة من الخدم
الخصوصيين الذين كانوا يظهرون في ثياب خاصة مذهبة .

١٣٣

والذين كانوا ينحنون للضيوف ، ويضربون كعوب الأقدام على نحو ما كانوا يصنعون في قصر بوتسدام . . . عليه السلام !!
ويبدو أن الإمبراطور الطريد كان لا يزال يحلم بأنه السيد الملك ، ولم تقنعه مدينة « دورن » الهولندية الصغيرة بأن العرش الألماني قد هوى من تحته . . . ولم يقنعه ذلك القصر الهولندي العتيق في تلك المدينة الهولندية بأنه أصبح الآن « إمبراطوراً سابقاً » لألمانيا المهزومة المغلوبة على أمرها في حرب سنة ١٩١٤ . . . وأن لقب الإمبراطور لا يخلع عليه إلا إبراء لدمه التاريخ . . .

لا ! لم يقتنع الإمبراطور الطريد بذلك . . . فقد ظل يضع سنين بعد تنازله عن العرش وهو يجلس على مائدة العشاء لا بسا ملابس القائذ العام . . . ! ولم يتخل عن هذه العادة إلا بعد أن أيقن حقيقة أن الدهر قد عصف بعرشه وتاجه وسلطانه ، وأن الأحلام مهما كانت لذيذة فإنها سيعقبها صحو أليم . . .

وعلى الرغم من أن غليوم الثاني كان يظهر حبه لأمريكا فإنه يعتقد أن دخولها الحرب العالمية في ٦ أبريل سنة ١٩١٧

١٣٤

هو الذى أصارتاجه وعرشه ، بل أصار ألمانيا إلى ذلك المصير
المشتوم . . .

وقد أخذت جيوش أمريكا تتدفق على فرنسا بعد إعلان
دخولها الحرب بأشهر قليلة ، ويقدر بعض المؤرخين أن عددهم
بلغ ستمائة ألف مقاتل ، وهذه رواية المؤرخ الإنجليزى « هربرت
فيشر » . ومهما يكن من عدد الأمريكيين الحاربين فإنهم بقيادة
الجنرال « برشنج » قد ساعدوا أكبر مساعدة على تعجيل
النهاية . . .

وعلى الرغم من نكبة الجيش البريطانى الخامس تحت
قيادة القائد الإنجليزى « نجوف » فإن الحلفاء تعلموا كثيراً من
الدروس التى عرفوها من أخطائهم . . . وأسندت القيادة العليا
لقوات الحلفاء إلى القائد الفرنسى « فوش » الذى قيل عنه إنه
أعظم قائد أنجبتة أعظم حرب . واختار « فوش » لمعاونته القائد
« فيجان » الذى امتاز فوق الحنكة العسكرية والمعرفة الواسعة
بالمهدوء وبعد النظر . . .

وجاء يوم موقعة « إميان » نذيراً لألمانيا بأن كفة الحلفاء
ستكون الراجحة فى الحرب ، وهو يوم ٨ أغسطس من سنة

١٣٥

١٩١٨، ولقد سماه « لودندورف » القائد الألماني باليوم الأسود، فقد أسر فيه عشرون ألفا من الألمان ، وفقد جيش الإمبراطور أثبت مراكزه وأكثرها أمناً . . .

وأدرك لودندورف -- وهو رئيس أركان حرب القيادة الألمانية -- أن مواصلة ألمانيا للقتال هو نوع من التفرير الذي يلقى بها إلى الهلكة . . . فطلب من حكومته أن تسعى إلى عقد صلح تخرج منه ألمانيا ببعض الكسب ، قبل أن تلجئها الظروف العصيبة إلى هزيمة منكرة تملئ عليها فيها الشروط إهلاء . . . وأدرك لودندورف -- فوق ذلك -- بنمطته وبعد نظره أن سوء الحالة في الجيش الألماني سيفضي بالبلاد إلى ثورة لا مفر منها . . . ولكن الإمبراطور لم يستمع ، ولم يستمع كذلك حزب الحرب الذي أصر على مواصلة القتال . . .

وقد سبقت بلغاريا وتركيا والنمسا إلى طلب الصلح من الحلفاء بعد أن حل بجيوشها وشعوبها من الإعياء والفاقة ما لا قبل لهم باحتمال أكثر منه . . . ولكن ألمانيا ظلت على إصرارها وعنادها تحارب في أشهر الخريف من سنة ١٩١٨ .

وكان الجنود الألمان يحاربون في النهاية بروح فاترة ، وخاصة

بعد ما تقدم أحلافهم بطلب الصلح . . . فسرت فيهم روح
من التذمر الذى كان نذيراً بأن العاصفة آتية عما قريب .
وتسلل التذمر فى صفوف الجيش إلى الشعب الذى أنهكه
الجوع والحرمان ، وأضناه الشقاء الذى ظل يعانيه أربعة أعوام
كانت كأنها الدهر كله . . . وزادى الشعب مطالباً بالصلح
العاجل السريع إنقاذاً للبلاد من خطر الهاوية المشرفة عليها ،
وابتدأت المنشورات توزع فى أنحاء ألمانيا تدعو إلى طلب
الصلح وإنهاء الحرب التى كلفت الناس أكثر مما فى طاقة البشر
أن يحملوه . . .

ورفضت أمريكا — وعلى رأسها الرئيس ولسن — أن تدخل
فى صلح مع ألمانيا ما دام على رأسها «غليوم الثانى» الذى عده
الحلفاء المسئول الأول عن الحرب .

• وأدرك الشعب الألمانى أن رغبته الملحة فى الصلح لن تتحقق
ما دام الإمبراطور يجلس على العرش ، فابتدأ ينادى بأن يعتزل
غليوم عرشه إنقاذاً للبلاد من محنتها . . .

واستحال تذمر الجيش إلى تمرد سافر صريح جرى . . .
لم تعرفه العسكرية البروسية فى نظامها الدقيق وفى طاعتها العمياء ،

١٣٧

فقد رفض جنود البحرية أن يطيعوا أمراً صدر لهم بالخروج من ميناء « كييل » إلى مياه البحر ، لملاقاة أسطول للحلفاء وكانت هذه الحادثة هي الصيحة التي أُنذرت الناس بأن الثورة الألمانية صائرة إلى أبعد الغايات

وأكرهت الجموع النائرة من الشعب الألماني ، وهي في فورة غضبها وتخطها على الذين ساقوهم إلى هذا البلاء والكرب العظيم — أكرهت الإمبراطور العنيد على أن يفوز من الثورة بالسلامة ويهرب خارج البلاد

وفي الصباح المبكر من يوم ١٠ نوفمبر سنة ١٩١٨ ، وفي الساعة الخامسة بالضبط ، خرج الإمبراطور غليوم الثاني ومعه ولده وبعض من حراسه وبطانته ، وركبوا سيارتين بلغتا بهم الحدود الهولندية في سرعة جنونية فقد وصلوا إلى تلك الجارة المحايدة بعد سفر ثلاث ساعات .

ودهش رجال الحدود وحراسها لهذه المفاجأة المباغتة على بكرة الصباح

ونزل الإمبراطور الطريد الهارب من سيارته وهو في ثيابه الإمبراطورية الرائعة الخفيفة ؛ وتقدم إلى الحراس الهولنديين

يعرفهم بنفسه ومد سيفه إلى ضباط الحدود ، وهي علامة
من ميراث القرون الوسطى على التأمين والسلام
واضطرب الضباط أكثر مما اضطرب حراس الحدود من
الجنود ، واتصلوا على عجل بالحكومة التي اتصلت بالملكة
« ولهمين » ملكة هولندا .

وقد أدركت الملكة المسلمة المحايدة دقة الظروف وخرج
الموقف الذي صارت إليه هولندا بهذا الضيف البغيض من
الحلفاء ومن شعبه الذي ألح في المطالبة بتزوله عن العرش .

ولقد قامت هولندا بالحيدة التامة في خلال سنوات الحرب
الأربع ، فماذا هي صانعة اليوم حتى تظل محترمة لهذا الحياد ؟
لقد قررت الحكومة الهولندية أن يحجز الإمبراطور الطريد
الحارب في قصر مريح ، حتى تحل المشكلة على وجه صحيح ...
وسيق الإمبراطور اللاجئ في حراسة شديدة إلى قلعة
« أمرنجن » الهولندية حيث قدمت إليه وثيقة التنازل عن العرش
فأتمضاها في يوم ٢٨ نوفمبر سنة ١٩١٨ .

وتقل بعد ذلك إلى قصر من القصور القديمة الجميلة في
مدينة « دورن » الهولندية الصغيرة الحادثة .

١٣٩

وظل الملك الطريد بعد ذلك فى عزلته الوداعة يقطع الوقت بالقاءة وكتابة المذكرات ، وتأليف بعض الكتب التى كان منها كتاب « آباءى » وسلسلة من يومياته .

ولم تفته بعض « الهوايات » الجميلة ، كالموسيقى وفلاحة البساتين ، وتربية الأزهار التى كانت تظفر فى المعارض الهولندية العالمية بأسمى الجوائز .

ولعل أعجب « هوايات » الإمبراطور غليوم الثانى هى الحفر على الخشب ، فقد كان يقضى فيها أكثر ساعات الصباح .

ولما زاره الكاتب الأمريكى المؤرخ « بولتنى بمجلوف » ليكتب سيرته ، أخذ الاثنان يخوضان فى أحاديث السياسة على أصوات منشارين دقيقين ، يقطعان فى خشب رقيق . . .

~ ~ ~

وكثيراً ما كان الإمبراطور الطريد يتمنى أن يسمح له بالعودة إلى وطنه حياً ، فأن لم يظفر بذلك فلا أقل من أن يؤذن بدفنه — حين يحين أجله — فى ثرى الأرض التى حارب من أجلها

فهرس

صفحة

٦	عرش على صنم
١٣	الأموى الطريد
٢٤	عرش بغداد
٣٣	ملك ينتحر غرقاً
٤٥	رؤيا تنذر بزوال دولة
٦٠	جثة سلطان على أحد أبواب القاهرة
٦٧	ملك يبكى على عرشه المنهار فتنهره أمه
٨٠	من الخلافة إلى الجمهورية
٩٢	ملك يتهم بالخيانة فيقطع رأسه
١٠١	إمبراطورة تؤثر الموت على الفرار
١١٤	مصرع القيصرية فى الدور الأرضى
١٢٦	إمبراطور يحمل وزر حرب طحون



- ١ أرنبو والكرتر
- ٢ كتكت المدهش
- ٣ عيد ميلاد فلة
- ٤ فرفر والجرس
- ٥ ذيل الفأر
- ٦ البطة السوداء
- ٧ انتصار فيروزة
- ٨ حسن والذئب
- ٩ حبة القمح
- ١٠ زحلف الشجاع

أول مجموعة من نوعها باللغة العربية يجد
الطفل فيها قصصاً مفيدة مزيّنة بالصور
المبتكرة ومطبوعة بالألوان الجميلة

تصدرها
دار المعارف بمصر

بمعاونة السيدة أمينة السعيد والدكتور يوسف مراد والأستاذ سيد قطاب

أفلاذنا

مجموعة من القصص الرشيقة المفيدة
يجد فيها الطالب في جميع مراحل النمو
المتعة والثقافة وسمو النفس .

١٢	١	عمرون شاه
١٢	٢	مملكة السحر
١٢	٣	كريم الدين البغدادي
١٢	٤	آلة الزمان
١٢	٥	الأمير والفقير
١٢	٦	كتاب الأدغال
١٥	٧	بينوكيو
١٢	٨	نبوءة المنجم
١٢	٩	روبن هود

تصدرها

دار المعارف بمصر

بإشراف الأستاذ محمد فريد أبو حديد يك

